

كيف نحقق

حُبِّ اللَّهِ

تَعَالَى

وَحُبِّ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي قُلُوبِنَا

*** مشروع تزكية لقلوب تقيّة نقيّة ***

أسامة محمد الحمصي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "

" وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا "

مقدمة

إذا امتلأ القلبُ بحبِّ اللهِ مولانا العظيم سبحانه وتعالى، وحبِّ نبيِّه الكريم سيِّدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلّم، أُخْبِتَ، وتواضع، وخشع. وإذا خَشَعَ القلبُ خشعت الجوارحُ. وإذا خشع القلب والجوارح ظهر أثر ذلك إيجابياً جلياً على السلوك عامّة، وعلى العبادات بشكلٍ أخصّ.¹

ومن تحقق بذلك انقاد لأوامر الشرع الحكيم، فأصبح مصدر خير ورحمة، لنفسه ولغيره.

لقد كان الباعث الحثيث على كتابة هذا البحث، أنّي كثيراً، وأنا أفف بين يدي ربّي تبارك وتعالى للصلاة، وأسمع من الإمام مثل عبارة: إخشعوا في صلاتكم... وَجَّهُوا قُلُوبَكُمْ إِلَى اللَّهِ... وعندما أرى أحياناً بعض صغار السنّ يُكثِّرون الحركات التي تَنقُص من الخُشوع في الصلاة؛ فينتهرهم ويزجرهم من هو أكبر منهم، ويطلب منهم أن يلتزموا في صلاتهم الأدب، وقلة الحركة، وخفض الصوت... أقول:

¹ انظر صفات عباد الرحمن في أواخر سورة الفرقان.

يا ليتنا نجد من يراقب لنا قلوبنا، ويُعلمنا ما يُخفف من شرودنا في الصلاة! فكما نحتاج إلى من يُنبهنا إذا أكثرنا من تحريك الجوارح... فنحن نحتاج على نحوٍ أكد وأشدّ، إلى مَنْ يُعلمنا ويرشدنا كيف نتحصل على خُشوع قلوبنا وجوارحنا في الصلاة خاصّة، وعلى الإخلاص والنشاط والهمّة العالية في الطاعات كافة...

فشعرتُ أنّي بأشدّ الحاجة إلى ما يُعين على الخُشوع الحقيقيّ، والإخلاص الكامل، عسى أن أكون من السالكين على الدرب الموصل إلى رضا الله سبحانه، وممّن ينالون محبّته، وسعادة الدارين.

فطُفْتُ أُنتمسُ ذلك في كتاب ربّي تبارك وتعالى، وفي سنّة الحبيب المُصطفى صلى الله عليه وسلّم، وفي سير الصحابة – الذين اختارهم الله تبارك وتعالى ورضيهم لصحبة أكرم الخلق عليه وأحبّهم إليه – رضوان الله عليهم أجمعين، وفي آثار الصالحين من بعدهم... فاقتبستُ... فكان هذا الكتاب...

وبعد التوكل على الله سبحانه، وطلب العون منه والمدد، حاولتُ أن يكون هذا البحث عقداً رائعاً، مكانه القلوب النقيّة النقيّة؛ يُزَيِّنُها، وتهفو إليه...

فُعصتُ في أعماق الكتب أستخرج من بطونها النفائسَ والدُررَ، طالبا منه سبحانه وتعالى الهداية والرشد والتيسير، مستعيذاً به من الخطلِ والغررِ...

والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقدِ أبهى في العين، وأملاً بالزِين منها، إذا أُفردتُ عن النظائر، وبدتُ فذةً للنّاظر... فنظمتُها مستعينا بالله، فكان هذا الكتاب سلّكها الذي انتظمت به...

ورجوتُ كذلك – بعد أن طوّفتُ في الجنان والبساتين، فاخترت من أفضل شجراتها اليانعات، وزروعها النَّضيرات، أطايب الأزهار والثمرات – أقول: رجوت أن يكون هذا الكتاب سميراً لقارئه، ومائدة يستطيب ممّا عليها ما لذّ وطاب.

قال الله تبارك وتعالى: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَضَلُّهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ

حِينَ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)
1».

والله جلّ في علاه أسأل الإخلاصَ والقَبُولَ، وأنْ يَنْفَعَ به، وأنْ يجعله سبباً في علوِّ همّة السالّكين، ودليل خير
للسبيل الموصل إلى محبة الله تعالى ورضاه.

ورحم الله من أسدى إليّ نصيحة، وأهدى إليّ منيحة، تزيد هذا العقد رونقاً وتألّقاً، وتُضفي على تلكم المائدة
بهاءً وضياءً.

وإنْ يَكُنْ عَيْباً فَسُدِّ الْخَلَا فَجَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

كلمة شكر

جزى الله خيراً كلَّ مَنْ أسهم في إنجاز هذا العمل.

فالشكر موصول لأهل بيتي (الزوجة والأولاد) على صبرهم المتواصل، حتى ظهر هذا الكتاب.

وأخصّ بالذكر والشكر الإخوة الأطيبين الأكارم:

— الدكتور محمود حسين الحريري (أبو سليمان).

— الدكتور محمد شكور الميادينى (أبو محمود).

— المهندس محمد عادل فارس (أبو عبيدة). حيث راجع أصل هذا البحث مرتين اثنتين.

— الدكتور معاذ سعيد حوا (أبو محمد).

— الأخ محمد صفوح الجنيدي (أبو مجاهد). فعلى مرضه، بذل جهداً طيباً في تدقيق هذا البحث، أسأل الله

تعالى له الشفاء والعافية.

¹ من سورة إبراهيم.

حيث أفدت كثيراً جداً من ملاحظاتهم، ونصحتهم، وإرشادهم، حتى ظهر هذا العمل بهذا المحتوى.

وكلّ الشكر لدار النشر، ولكلّ من ساهم في تصميم الغلاف أو الطباعة والإخراج، ولكلّ من ساهم في التمويل، ولكلّ من كان له جهد في وصول هذا الكتاب وحضوره بين يديك أخي القارئ الكريم، وأرجو منك دعوة صالحة. وأسأل الله سبحانه وتعالى القبول منّا جميعاً، وأنّ ينفعنا به، وأنّ يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

احتوى الكتاب على مبحثين:

المبحث الأول: الحبّ في الله تعالى.

وفيه: تمهيد. وبعض ما يعنيه الحب. وموضع الحبّ ومجاله. وبعض علامات حبّ الله تعالى وحبّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وبعض صفات الذين يُحبّون الله تعالى ويحبّهم سبحانه، وثمره الحبّ.

المبحث الثاني: كيف نحقق حبّ الله تعالى، وحبّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في قلوبنا؟.

وفيه: مقدمة، وبابان رئيسان، وخاتمة البحث.

الباب الأوّل

فيه: تمهيد، وعشرة فصول، هي:

أولاً – الإيمان.

ثانياً – التقوى.

ثالثا – الإحسان.

رابعا – الصبر.

خامسا وسادسا – التَّوْبُ والتطهر.

سابعاً – التوكل.

ثامنا – القسط (العدل).

تاسعا – المجاهدة.

عاشرا – الإخبات.

وخلاصة الباب الأول.

الباب الثاني

وفيه: تمهيد، وثمانية فصول، هي:

أولا – الكفر والشرك.

ثانيا – الظلم.

ثالثا – الاعتداء والعدوان.

رابعا – الفساد والإفساد.

خامسا – الكِبْر والاستكبار.

سادسا – الخيانة.

سابعاً – الإسراف والتبذير.

ثامنا — الفسق.

وخلاصة الباب الثاني.

المبحث الأول الحبّ في الله تعالى

أولاً — تمهيد

قال الله سبحانه وتعالى: "قُلْ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي، يُحِبِّكُمْ اللَّهُ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ. وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ".¹

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ".²

وقال أحدهم: الإسلام ذوق، والإسلام لطائف، والإسلام أحاسيس ومشاعر.

هذا الدين يتعامل مع النفس البشريّة، ويتعامل مع القلوب، ويتعامل مع الأرواح والأنفاس.

¹ آل عمران: 31.

² جزء من حديث رواه الإمام أحمد رحمه الله، في مسند أنس بن مالك رضي الله عنه.

والإسلام يتعامل بروح الأخوة، قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ " ¹.

ويتعامل بروح المحبة، قال صلى الله عليه وسلم: " لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ " ².

ويتعامل بروح التعاون: " وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ " ³.

ثانياً – بعض ما يعنيه الحبّ

الْحُبُّ: إرادة عن قصد. والحب: الودُّ والوداد. ⁴ والحبُّ: ضدُّ البُغْضِ. ⁵ والحبُّ: الاستحسان.

وشغفَ الحبُّ فؤاده: علاه، وغلب عليه. والصبابة: رقة الهوى والحب. والعشق: رقة الحب. والرأفة: رقة الرحمة.

هذا، وقد نهينا عن الإفراط في الحبِّ، وعن الإفراط في البُغْضِ.

قال صلى الله عليه وسلم: " أَحَبُّ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ بَغِيبِكَ يَوْمًا مَا. وَأَبْغَضُ بَغِيبِكَ هَوْنًا مَا، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ حَبِيبِكَ يَوْمًا مَا ". رواه أبو عيسى الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ. ⁶

قال الجزري في النهاية في غريب الأثر: يَعْنِي: لَا تُسْرِفْ فِي الْحُبِّ وَالبُغْضِ، فَعَسَىٰ أَنْ يَصِيرَ الْحَبِيبُ بَغِيبًا، وَالبَغِيبُ حَبِيبًا. فَلَا تَكُنْ قَدْ أُسْرِفْتَ فِي الْحُبِّ فَتَنْدَمَ، وَلَا فِي البُغْضِ فَتَسْتَحْيِي.

ثالثاً – موضع الحبِّ ومجاله

مواضع الحبِّ ومجالاته واسعة، ومتنوعة. فقد يكون الحبُّ لله تعالى (الخالق)، وقد يكون للمخلوق (كحبنا

للأنبياء، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين) . وقد يكون للمادة المحسوسة، وربما أحبَّ غير محسوس، كالإيمان: "

¹ الحجرات: 10.

² متفق عليه. رواه إماما المحدثين، البخاري، ومسلم، رضي الله عنهما، في صحيحيهما اللذين هما أصحُّ الكتبِ المصنفة. البخاري، في الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه. ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه...

³ المائدة: 2.

⁴ القاموس المحيط.

⁵ الصحاح في اللغة.

⁶ وصححه الألباني في: صحيح وضعيف سنن الترمذي، برقم: 1997.

وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ¹ وَالْجَمَالَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ.

رابعاً – بعض علامات حبّ الله تعالى وحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلّم

1 – مراقبة الله تعالى، في الشأن كلّه، وتعظيمه، والحياء منه سبحانه وتعالى.

فاجتهد أن لا يراك مولاك حيث نهاك، وأن لا يفقدك حيث أمرك.

2 – ومن علامات حبّ الله سبحانه وتعالى: حبّ كلامه (القرآن)، والقرآن يأمرنا بحبّ النبيّ صلى الله عليه

وسلّم (الرسول)، والرسول صلى الله عليه وسلّم، أمرنا أن يحبّ بعضنا بعضاً (المُرسل إليهم/ أمته) . والحبّ هنا مرتبط بالتطبيق، ارتباطاً وثيقاً لا انفصام له، ولا انفكاك عنه.

فالحُبّ عقيدة، وعبادة، ومعاملة... فهو يشمل الحياة كلّها.

3 – ومن أهمّ العلامات الدالّة على حبّ الله تعالى، وحبّ النبيّ محمد صلى الله عليه وسلّم:

طاعة الله سبحانه وتعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلّم.²

قال الله سبحانه وتعالى: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)

"³

¹ الحجرات: 7.

² في كلّ أمر، وفي كلّ نهى.

³ الآيات من سورة آل عمران.

يقول سيّد قطب رحمه الله تعليقا على هذه الآية¹: إنّ حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هدايه، وتحقيق منهجه في الحياة. وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام. ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول. انتهى.

فالحبّ اتباع، والاتباع يثمر المحبّة. والحبّ سمعٌ وطاعة²، والسمع والطاعة براءة من الكفر.

4 – ومن علامات الحبّ بالله: البغض في الله تعالى كذلك.

قال سبحانه وتعالى: " لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ، أَوْ أَبْنَاءَهُمْ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، خَالِدِينَ فِيهَا. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَرَضُوا عَنْهُ. أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ. أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"³.

قال الغزالي رحمه الله: اعلم، أن كل من يحب في الله، لا بد أن يبغض في الله. فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله، ومحبوب عند الله، فإن عصاه فلا بد أن تبغضه، لأنه عاص الله، وممقوت عند الله. ومن أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده. وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وهو مُطرد في الحب والبغض.⁴ انتهى.

على أن لا يحملنا بغض أحد على العدوان وتجاوز العدل.

¹ في ظلال القرآن، تفسير سورة آل عمران.
² قال الشاعر:

تَعْصِي اللّٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ بَيْنَ يَدَيْكَ بِنِعْمَةٍ
هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ يُطِيعُ
مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَلِكَ مُضِيعُ

³ المجادلة: 2

⁴ إحياء علوم الدين. ج2: ص14.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ".¹

أي: لا يحملنكم بغض قوم أن تعتدوا. بل عليكم أن تلتزموا التقوى والعدل على كل حال.

خامساً – بعض صفات الذين يحبون الله تعالى ويحبهم سبحانه

1 – قال الله سبحانه: " وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ".²

فحبّ المؤمنين لله أكثر وأعمق، وأشدّ تأثيراً. ولحبهم لله وتمايم معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه.

2 – حبّ المهاجرين والأنصار جميعاً، عليهم جميعهم من الله الرحمة والرضوان.³

قال الله سبحانه وتعالى: " وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ".⁴

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ. وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ ". متفق عليه، واللفظ للبخاري.⁵

وَعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْأَنْصَارِ: " لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ. مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ ". متفق عليه، واللفظ لمسلم.⁶

¹ المائدة: 2.

² البقرة: 165.

³ وأولهم وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة، رضي الله عنهم وأرضاهم.

⁴ الحشر: 9.

⁵ البخاري، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار. ومسلم، باب الدليل على أن حبّ الأنصار...

⁶ البخاري، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار. ومسلم، باب الدليل على أن حبّ الأنصار...

3 - قال الله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " ¹.

فقد جمعت الآية محبة الله لهم، ومحبتهم له: " يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ "، وبيّنت بعض صفات المؤمنين الكَمَل: أن يكون أحدهم متواضعاً لإخوانه وأوليائه، متعزّزاً على خصومه وأعدائه، كما قال سبحانه: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ " ².

4 - الزهد بما في هذه الحياة الدنيا.

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، ذلني على عمل إذا عملته أحببني الله، وأحبنى الناس. فقال: " ازهد في الدنيا يُحِبِّكَ اللهُ، وازهد فيما عِندَ النَّاسِ يُحِبِّكَ النَّاسُ ". حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة ³.

سادساً - من ثمرات حبّ الله تعالى

من كان في قلبه حبّ لله تعالى، وحبّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أطاع الله تعالى، وأطاع رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك بأن يؤدّي ما أمر به، ويجتنب ما نهى عنه.

قال سبحانه وتعالى: " فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا " ⁴.

¹ المائدة: 54.

² الفتح: 29.

³ ابن ماجه في باب الزهد في الدنيا. والطبراني في معجمه الكبير. والحاكم في الرقائق من مستدرکه.

⁴ التغابن: 16.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ. وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ". متفق عليه.¹

فما يزال العبدُ يزداد حبًّا لله ويتقرب بما افترَضَ عليه، ويطلب القرب بالنوافل، حتَّى يُحِبَّهُ اللهُ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ ".²

وإذا أحبَّ اللهُ العبدَ، وضعَ له القبول عند أهل السماء، وعند أهل الأرض.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيْلَ، فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيْلُ. ثُمَّ يَنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أُبْغِضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيْلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأُبْغِضُهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيْلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأُبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوَضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ ". متفق عليه، وهذه رواية مسلم.³

جاء في شرح النووي على مسلم: ومَعْنَى " يُوَضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ": أَيِ الْحُبِّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَرِضَاهُمْ عَنْهُ، فَتَمِيلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ، وَتَرْضَى عَنْهُ. وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ "تُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ ". انتهى.

فحبَّ اللهُ للعبد، ثمرة يانعة من ثمرات حبِّ العبد لله، وطاعته له سبحانه وتعالى.

¹ رواه البخاري في الاعتصام - واللفظ له - ومسلم في الفضائل.

² رواه البخاري في الرقاق، باب: التواضع.

³ البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة. ومسلم في أواخر كتاب البر والصلة والأدب، باب إذا أحبَّ اللهُ عبداً...

المبحث الثاني

كيف نحقق حبَّ الله تعالى، وحبَّ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم في قلوبنا؟.

مقدمة

كفى بالمرءَ علماً، أنْ يَعْرِفَ اللهَ سبحانه وتعالى.

وكفى بالمرءَ جهلاً، أنْ يعصيَ اللهَ عزَّ وجلَّ.

ومَنْ عَرَفَ اللهَ، خَشِيَهِ وَاتَّقَاهُ.

ومَنْ عَرَفَ اللهَ، أَجَلُهُ وَأَحَبَّهُ وَاتَّبَعَ رِضَاهُ.

فكيف نُحَقِّقُ حبَّ الله تعالى، وحبَّ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم في قلوبنا؛ وحياتنا؟! وكيف نُزَكِّي أنفُسَنَا؟! وكيف نسمو بأرواحنا؟! لنكون مِمَّنْ أَحَبَّهُمُ اللهُ، وَمِمَّنْ أَحَبُّوا اللهُ، على النحو الذي يحبه مولانا ويرضاه؟!...حتى نلقاه وهو راضٍ عَنَّا، ونحن راضون عنه...

لقد ورد في الشرع الحكيم نصوص قرآنية ونبوية، منها ما ذُكِرَ فيه صفات لمن أحبهم الله ورسوله، ومنها ما هو على النقيض من ذلك تماماً.

فمن الصفات الجالبة لمحبة الله سبحانه وتعالى، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلّم: الإيمان، والتقوى، والإحسان، والصبر، وجهاد الكفار... وغير ذلك من الصفات التي حثَّ عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ففي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي جاء فيها مثلُ قوله سبحانه: " اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا "، ومثل قوله سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ "، ومثل قوله سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ"، ومثل قوله تعالى: " وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ "... وغيرها من الآيات التي تتحدث عن الصفات التي يُحِبُّها الله سبحانه أن تكون متحققة في عباده المؤمنين.

وستتعرف خلال البحث كذلك على نصوص نبويّة تدور حول هذه المعاني، والصفات.

تلك الصفات التي تكاد تكون وصفاً لشيء واحد؛ مع وفرة ذكرها؛ لوضوح تلازمها وترباطها. فحيث تحققت واحدة من هذه الصفات الحميدة المحببة لزم وجود الصفات الأخرى، وإن بنسب قد تنفاوت بين عبد وعبد، ومن حال إلى حال، ومن زمن لآخر...

والسعيد السعيد من تحققت فيه — بفضل من الله سبحانه — هذه الصفات مجتمعة في أعلى درجاتها؛ وأكمل مقاماتها؛ وأحسن معانيها. وهذا بعض المقصود من هذا البحث.

وهناك صفات ذكرها الله سبحانه في كتابه العزيز، وذكرها النبيّ صلى الله عليه وسلّم؛ على أنها صفات لا يحبّها الله تعالى ولا يحبّها رسوله صلى الله عليه وسلّم. مثل: الكفر، والظلم، والاعتداء، والفسق... وغيرها من المذمومات: الاعتقاديّة، والقولية، والفعلية، أجازنا الله منها. وبالتالي فإنّ على العباد اجتنابها، والابتعاد عنها؛ بل عليهم التخلّق بأضدادها من الصفات الحميدة.

والسعيد السعيد من عافاه الله تعالى منها بفضل منه ومِنَّة وكرم، ووفقه لاجتنابها والابتعاد عنها. وهذا ملاحظ ومقصود في هذا البحث كذلك.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ: يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ"¹.

فهياً بنا نركبُ في سفينة الرُّسل والأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ومركب النجاة، نتأسى بهم، ونتخذهم قدوة لنا، عسى أن نكون من المؤمنين المتقين المحسنين، فننجو مع الناجين، ونكون بإذن الله من الفائزين. ولا نكون مع الكافرين الظالمين المعتدين المفسدين، فنهلك مع الهالكين، وذلك هو الخسران المبين.

¹ هود: 42.

الباب الأوّل

صفات يُحبّها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلّم

تمهيد:

الإيمان امتداد أقيّ. والتقوى، والإحسان، والصبر، والتوكل، وغيرها من صفات المؤمنين، امتدادها عمودي. بمعنى أنّ الإيمان أساس وقاعدة، ضاربة الجذور، راسخة الأركان في القلوب. ¹ إيمان قويّ راسخ كالرواسي الشمّ (عقيدة، واستسلاما وتصديقا، وعبادات، وطاعات، ومعاملات) في قلوب المؤمنين، فاستحقوا بذلك الولاية من الله، والسعادة في الدارين، والبشرى منه سبحانه بحسن الخاتمة، والأجر العظيم والجزاء الكريم في الآخرة.

والصفات الحسنات الطيّبات بناء قويّ، متماسك، متكامل، قائم على ذلك الأساس المتين، والركن الركين، في قلوب المؤخدين المؤمنين.

وإذا تحقّق ذلك عند أفراد المجتمع، كلّهم أو جلّهم، عاش ذلك المجتمع حياة هانئة، مطمئنة، آمنة، ملؤها السعادة، واستلم بين الأمم موقع القيادة. وقد وعد الله المؤمنين به من كلّ خير بالزيادة.

احتوى هذا الباب على صفات ذُكرت في القرآن الكريم وفي السنّة المُطهّرة، على أنّها محبوبة مرغوبة؛ وأسباب جالبة لمحبة الله سبحانه، ومحبة النبيّ صلى الله عليه وسلّم.

¹ من أسباب تمكين الإيمان في القلوب، وتقويته، ورسوخه فيها، الاطلاع على أبحاث الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهّرة.

ومن لوازم ذلك محبةُ الله سبحانه وتعالى لمن اتّصف بتلك الصفات، ومدحُه لكل السبل وجميع الطرق الموصلة إليها، وحثُّه لنا على التزامها واتباعها.

فقد وردت في القرآن كلمة: " يُجِبُّ "، على وجه تحقيق المحبة، في سبعة عشر موضعاً، هي عدد ركعات الصلوات المفروضة. وسنتعرف على تفصيلاتها في فصول هذا الباب.¹

الفصل الأول - الإيمان

وفيه: تمهيد؛ وتعريف الإيمان، وذكر الإيمان في القرآن الكريم، وأعظم شعب الإيمان وحدّ الإسلام، وحلاوة الإيمان، وكفّ الأذى، والمحافظة على الأمانة والعهد، وأقوال في الإيمان.

تمهيد:

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ "².

وقال سبحانه وتعالى: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ "³.

وإنّ الإيمان ليس بالتخلّي ولا بالتأمّي، إنّ الإيمان ما قرأ في القلب؛ وصدّقهُ العملُ.

ولئن كانت أركان الإسلام تمثّل جانب العبادات في ديننا الحنيف، فإنّ أركان الإيمان وشعبه تمثّل جوانب العقيدة، والجوانب العمليّة في شرعنا القويم.

¹ (مع المحسنين: 5 مرات. ومع المتقين: 3. ومع المقسطين: 3. ومع المتطهرين: 2. ومع التوابين، والصابرين، والمتوكلين، والذين يقاتلون في سبيله صفاً، مرّة لكل منها).
² النساء: 136.
³ البينة: 7.

وللوقوف على بعض الجوانب المتعلقة بالإيمان، نستعرض الفقرات الآتية.

تعريف الإيمان

جاء في كتاب التعريفات للجرجاني¹: الإيمان، في اللغة: التصديق بالقلب. وفي الشرع: هو الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان.

وفي شرح صحيح مسلم: وَالْإِيمَانُ فِي لِسَانِ الشَّرْعِ، هُوَ: التَّصَدِيقُ بِالْقَلْبِ، وَالْعَمَلُ بِالْأَرْكَانِ.²

وفي كتاب العين للخليل بن أحمد³:

التَّوْحِيدُ: الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَاللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ذُو التَّوْحِيدِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ. وَالْكَفْرُ: نَقِيضُ الإِيمَانِ. وَبَرَازِخُ الإِيمَانِ: مَا بَيْنَ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ.⁴

وأما اليقين فهو في اللغة: زوال الشك، والمراد الإيقان بالله تعالى، وإزاحة الشك فيه، فلا إيمان إلا به، ومن شك فلا إيمان له. والكفر: نقيض الشكر. كفر النعمة، أي: لم يشكرها.

ذكر الإيمان في القرآن الكريم

سأذكر في هذه الفقرة بعضاً من جوانب ذكر القرآن الكريم للإيمان، وللمؤمنين.

أولاً - قال الله سبحانه وتعالى: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ: آمَنَّا بِاللَّهِ
وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ."⁵

¹ ج: 1، باب الإيمان.

² انظر شرح النووي على مسلم، ج1، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان.

³ ج: 1، باب: وحد.

⁴ البرزخ: ما بين كل شيئين.

⁵ البقرة: 8.

فقولهم بأفواههم، خالف واقع الحال منهم. فنفى الله عنهم — وهو العليم بالسرائر — صفة الإيمان. أولئك هم المنافقون. فلا بد أن يقترن القول باللسان، مع تصديق بالجنان، وعمل بالأركان، وإلا فلا إيمان.

ثانياً — اقترنت كلمة: " آمنوا " في القرآن الكريم مع: " وعملوا الصالحات " اثنتين وخمسين مرة.

فالعامل الصالح من مقتضيات الإيمان ولوازمه. وعمل الصالحات من صفات المؤمنين اللازمة لهم، لا انفكاك لأحدهما عن الآخر.

ثالثاً — وردت كلمة: " مؤمنون "، في القرآن الكريم، خمساً وثلاثين مرة، في أربع وثلاثين آية.

جاء في سبعة مواضع منها: " وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " ¹ وفي آية الأنفال ذَكَرَ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ: " وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " ².

كان سياق الآيات في هذه المواضع الثمانية، يوجّه المؤمنين إلى الوحدة، وعدم الفرقة والاختلاف، وحسن الاعتماد على الله تعالى، والصبر والتفويض الكامل لله تعالى، والثبات على ذلك عند مواجهة أيّ خطر — حاصل أو متوقع — على الجماعة المؤمنة، سواء كان ذلك الخطر من الآخر (عدو، أو شيطان)، أو من النفس، أو من داخل الصفّ المؤمن نفسه.

رابعاً — وردت كلمة: " مؤمنين "، مئة وأربعاً وأربعين مرة، في مئة واثنتين وأربعين آية.

تكرر الخطاب القرآني: " إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " ست عشرة مرة، كان الخطاب للأمم السابقة في ثمانية مواضع منها، والثمانية المواضع الأخرى كانت لهذه الأمة، أمّة الحبيب صلى الله عليه وسلّم: " خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ " ³ والمواضع الثمانية في الآيات الآتية:

¹ (آل عمران: 122 و 160. المائدة: 11. التوبة: 51. إبراهيم: 11. المجادلة: 10. التغابن: 13).

² الأنفال: 2.

³ آل عمران: 110.

1 - قال سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".¹

2 - وقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".²

3 - وقال سبحانه وتعالى: " إِنَّمَا دَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".³

4 - وقال سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".⁴

5 - وقال سبحانه وتعالى: " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".⁵

6 - وقال سبحانه وتعالى: " أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".⁶

¹ البقرة: 278.

² آل عمران: 139.

³ آل عمران: 175.

⁴ المائدة: 57.

⁵ الأنفال: 1.

⁶ التوبة: 13.

7 – وقال سبحانه وتعالى: " وَلَوْ اِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا اَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمْ اللّٰهُ اَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ اَبَدًا اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " ¹.

8 – وقال سبحانه: " وَمَا لَكُمْ لَّا تُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ اَخَذَ مِيثَاقَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " ².

نلاحظ أنّ الآيات الثمانية ركزت على النواحي الداخلية للمجتمع المؤمن. فعالجت جانبا اقتصاديا على أهمية كبرى، وتطرقت لأمر نفسيّة تتعلق برفع بالمعنويّات، وبيّنت أنّ الحاكميّة لله ورسوله، وأنّ الولاء لله ورسوله وللمؤمنين، وأمرت بتحسين الصّف الداخليّ.

خامساً – قال الله سبحانه: " اِنَّ اللّٰهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلٰى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " ³.

فقد شرف المؤمن على أبد الدهر، وفي كلّ مصر، حين خاطبهم وأمرهم بالصلاة والسلام على سيّد الأنام: رسول الله وحبّبه محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي ذلك يتشبه المؤمنون في صلاتهم وسلامهم على النبيّ الطاهر الزكيّ، بصلاة الله تعالى وملائكته على الحبيب المصطفى، والنبيّ المجتبيّ، صلى الله عليه وسلّم.

سادساً – تكرر النداء القرآني: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " تسعاً وثمانين مرّة، خاطب القرآن فيها المؤمنين أمراً لهم بكلّ خير وحسن، وناهيّاً لهم عن كلّ شرّ. خطاباً عامّاً شاملاً لكلّ مناحي الحياة.

¹ سورة النور.

² الحديد: 8.

³ الأحزاب: 56.

أعظم شعب الإيمان وحد الإسلام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ ". متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.¹

فالإيمان مراتب، والحياء درجة من درجاته؛ وصفة من صفاته.

ومن أعظم شعب الإيمان وعلاماته الدالة على رسوخه في قلب صاحبه: أن يقبل قلب المؤمن كلام الله راضياً، ولا يجد حرجاً من اتباع حكمه.

قال الله سبحانه وتعالى: " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ".²

يقول سيد قطب في " في ظلال القرآن ": وإذا كان يكفي لإثبات « الإسلام » أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله سبحانه، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم... فإنه لا يكفي في « الإيمان » هذا، ما لم يصحبه الرضا النفسي، والقبول القلبي، وإسلام القلب والجنان، في اطمئنان! هذا هو الإسلام. انتهى.

وجاء في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب:

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي شَرْحِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ: الرِّضَا بِالْقَضَاءِ الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ وَاجِبٌ، وَهُوَ أَسَاسُ الْإِسْلَامِ وَقَاعِدَةُ الْإِيمَانِ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِهِ بِلَا حَرَجٍ، وَلَا مُنَازَعَةٍ، وَلَا مُعَارَضَةٍ، وَلَا اعْتِرَاضٍ.

قَالَ تَعَالَى: " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا "

1. البخاري في الإيمان (باب أمور الإيمان). ومسلم في الإيمان (شعب الإيمان). (البضع من العدد: من ثلاثة إلى تسعة. والشعبة: القطعة والخصلة. والإمطة: الإزالة. والأذى: كل ما يؤذي).

² النساء 65.

فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكَمُوا رَسُولَهُ، وَيَرْتَفِعَ الْحَرَجُ مِنْ نُفُوسِهِمْ مِنْ حُكْمِهِ، وَيَسْلَمُوا لِحُكْمِهِ، وَهَذَا حَقِيقَةُ الرِّضَا بِحُكْمِهِ.

فَالْتَحَكِيمُ فِي مَقَامِ الْإِسْلَامِ، وَانْتِفَاءُ الْحَرَجِ فِي مَقَامِ الْإِيمَانِ، وَالتَّسْلِيمُ فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ. انتهى.

حلاوة الإيمان

إن للإيمان حلاوة، ذاق طعمها من وُفق لذلك، والمحروم من حُرْمِ منها... ومن كان ذواقاً وأراد أن يذوق طعم الإيمان وحلاوته فليقرأ الحديث النبوي الآتي:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا. وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ. وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْتَلَ فِي النَّارِ ". متفق عليه، واللفظ لمسلم.¹

جاء في شرح النووي على مسلم²، تعليقا على هذا الحديث: قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: مَعْنَى حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ اسْتِئْذَانُ الطَّاعَاتِ، وَتَحَمُّلُ الْمَشَقَّاتِ، فِي رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِثَارَ ذَلِكَ عَلَى عَرْضِ الدُّنْيَا. وَمَحَبَّةُ الْعَبْدِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِفِعْلِ طَاعَتِهِ، وَتَرْكِ مُخَالَفَتِهِ، وَكَذَلِكَ مَحَبَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا ". قَالَ صَاحِبُ التَّحْرِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَعْنَى رَضِيْتُ بِالشَّيْءِ قَنَعْتُ بِهِ وَاکْتَفَيْتُ بِهِ، وَلَمْ أَطْلُبْ مَعَهُ غَيْرَهُ. فَمَعْنَى الْحَدِيثِ لَمْ يَطْلُبْ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَسْعَ فِي غَيْرِ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَسْئَلْ إِلَّا مَا يُوَافِقُ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَقَدْ خَلَصَتْ حَلَاوَةُ الْإِيمَانِ إِلَى قَلْبِهِ، وَذَاقَ طَعْمَهُ. انتهى.

كف الأذى

ومن شعب الإيمان: كَفُّ الْأَذَى عَنِ النَّاسِ عَامَّةً، وَعَنِ الْجِيرَانِ خَاصَّةً.

¹ الحديث في صحيح مسلم، في الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهنَّ وجدَّ حلاوة الإيمان 48. ورواه أحمد، والترمذي، والنسائي.
² ج: 1، باب بيان خصال من اتصف بهنَّ وجدَّ بهنَّ حلاوة الإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! " قيل: من يا رسول الله؟ قال: " الذي لا يأمن جاره بوائقه! " متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ".¹

وإن كَفَّ الأذى عن الناس، من لوازم حُسْن الخُلُق. جاء في سنن الترمذي: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، أَنَّهُ وَصَفَ حُسْنَ الخُلُق، فَقَالَ: هُوَ بَسْطُ الوَجْهِ، وَبَذْلُ المَعْرُوفِ، وَكَفُّ الأذى.²

المحافظة على الأمانة والعهد

قال سبحانه وتعالى: " بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ".³

وقال سبحانه وتعالى: " وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ".⁴

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَّا قَالَ: " لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له ". حديث صحيح، رواه أحمد⁵، والبخاري، والطبراني في الأوسط، وابن حبان.

وفي تفسير القرطبي: والأمانة أعم من العهد، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد. انتهى.

ولقائل أن يقول: ما العلاقة المباشرة بين المحافظة على الأمانة والعهد، وبين هذا البحث؟!.

فأقول: قد تجد الكثير من رواد المساجد يحافظون على أداء الصلوات الخمس في المسجد، وربما يقول بعضهم

إنه أدى كذا وكذا عمرة، وكذا حجة، ويصوم النوافل، وغير ذلك من القربات...

ولكن ذلك العابد المتبتل سرعان ما يسقط في أول اختبار لك معه إذا عاملته بالدرهم والدينار، فَيَعِدُّ وَيُخْلِفُ،

وَيُعْطِي عَهْدًا وَيَنْكُثُ. وربما وجدته سيء الخُلُق والمُعَامَلَة إذا خالطته أو سافرت معه. فالدين المعاملة.

¹ البخاري، في الأدب: باب إثم من لم يأمن جاره بوائقه. ومسلم، في الإيمان: باب تحريم إيذاء الجار. (البوائق: الغوائل، والشُرور).

² سنن الترمذي: رقم: 1928.

³ آل عمران: 76.

⁴ المؤمنون: 8. والمعارج: 32. (راعون: محافظون، غير مضيعين).

⁵ مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، تحت رقم: 11935.

أقوال في الإيمان

— عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلِّ خَيْرٍ آخِرُ صِرْفٍ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تُقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ ". رواه مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

في شرح النووي على مسلم: والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة. انتهى.

الإيمان قول، وفعل، واعتقاد، فإذا أخلَّ بجزء منها لم يكتمل إيمانه، بل قد يوصف بنقيضه.

— قال الجرجاني في كتابه التعريفات: من شهد وعمل ولم يعتقد، فهو منافق. ومن شهد ولم يعمل واعتقد، فهو فاسق. ومن أخل بالشهادة، فهو كافر.

والإيمان على خمسة أوجه: إيمان مطبوع، وإيمان مقبول، وإيمان معصوم، وإيمان موقوف، وإيمان مردود. فالإيمان المطبوع هو إيمان الملائكة، والإيمان المعصوم هو إيمان الأنبياء، والإيمان المقبول هو إيمان عامة المؤمنين، والإيمان الموقوف، هو إيمان المبتدعين، والإيمان المردود، هو إيمان المنافقين. انتهى.

— وفي كتاب " في ظلال القرآن " لسيد قطب:

إنه الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين. الإيمان الذي يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوته في الأرض إلى يوم القيامة، الضاربة الجذور في أعماق الزمان، السائرة في موكب الدعوة وموكب الرسول

وموكب الإيمان الممتد في شعاب التاريخ البشري، الإيمان الذي يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها، صفيين اثنين: صف المؤمنين، وصف الكافرين.¹

وفي مكان آخر يقول سيّد قطب: ... إنه مذاق العبودية الراضية، التي لا يسوقها القسر، ولا يحركها القهر. إنما تحركها — قبل الأمر والتكليف — عاطفة الوُدِّ والطمأنينة والتناسق مع الوجود كله... فلا تفكر في التهرب من الأمر، ولا التفلت من القهر؛ لأنها إنما تلبي حاجتها الفطرية في الاستسلام الجميل المريح.. الاستسلام لله الذي يرفع الجباه عن الدينونة لغيره أو العبودية لسواه. الاستسلام الرفيع الكريم لرب العالمين.

هذا الاستسلام هو الذي يمثل معنى الإيمان، ويعطيه طعمه ومذاقه.. وهذه العبودية هي التي تحقق معنى الإسلام، وتعطيه حيويته وروحه.. وهي هي القاعدة التي لا بد أن تقام وتستقر، قبل التكليف والأمر؛ وقبل الشعائر والشرائع.. ومن ثم هذه العناية الكبرى بإنشائها وتقريرها وتعميقها وتثبيتها في المنهج القرآني الحكيم.²

ويقول سيّد قطب أيضاً تعليقا على سورة العصر:

إنه الإيمان. والعمل الصالح. والتواصي بالحق. والتواصي بالصبر... فما الإيمان؟!

نحن لا نعرّف الإيمان هنا تعريفه الفقهي؛ ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمه في الحياة.

إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود، بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود. ومن ثم اتصّاله بالكون الصادر عن ذات المصدر، وبالنواميس التي تحكم هذا الكون، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه. والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير. ومن حدود قوته الهزيلة، إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة. ومن حدود عمره القصير، إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله.

وفضلاً عما يمنحه هذا الاتصال، للكائن الإنساني، من قوة وامتداد وانطلاق، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعاً بالوجود وما فيه من جمال، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه. فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي

¹ ج: 1، ص: 322.

² ج: 3، ص: 228.

مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان.. وهي سعادة رفيعة، وفرح نفيس، وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب. وهو كسب لا يعدله كسب. وفقدانه خسران لا يعدله خسران..

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة.. انتهى.

وفي نهاية هذه الفقرة، أُرْفَ إليك أخي الكريم هذه البشارة النبوية:

في مسند الإمام أحمد رحمه الله، عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي ". قَالَ: فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْلَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانُكَ؟! قَالَ: " أَنْتُمْ أَصْحَابِي. وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْني ". صححه الألباني رحمه الله.¹

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْعَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لِنِفَاضِ مَا بَيْنَهُمْ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ، لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: " بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ ". متفق عليه، واللفظ لمسلم.²

الحمد لله رب العالمين. اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمان وزينّه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفرَ والفسوقَ العصيانَ، واجعلنا بكرمك من الراشدين الفائزين.

اللهم إنا نسألك إيماناً صادقاً، وعملاً صالحاً مُتقبلاً يا رب العالمين. اللهم اشهد بأننا رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبسيدنا محمدَ عبدك وحبيبك ونبيكَ ورسولك نبياً ورسولاً.

¹ السلسلة الصحيحة مختصرة، ج:7، ص:89.

² البخاري: الرقاق، باب صفة الجنة والنار. ومسلم في الجنة، باب: تراني أهل الجنة.

الفصل الثاني - التقوى

وفيه: تمهيد؛ وتعريف التقوى؛ وذكر التقوى في القرآن الكريم؛ وأهم ثمرات التقوى، وأحاديث في التقوى؛ ومنبع التقوى ومكانها، وكيف نتحصّل على التقوى؟ (وفيه ثلاثة فصول: العبادة، والصيام، والتقرب بالنوافل بعد الفرائض)، وأقوال في التقوى.

تمهيد:

قال الله سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ، وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ. إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ".¹

التقوى أقوى، والتقوى أبقى، والتقوى أنقى، والتقوى طريقة أرباب العزيمة. ومن خاف من شيء فرّ منه، ومن خاف من الله فرّ إليه " فَرُّوا إِلَى اللَّهِ "، وإذا اتقى الإنسان شيئاً ابتعد عنه وانفصل. وكلّما ازداد من التقوى ازداد قرباً من الله تعالى واتّصل. فعلى العباد أن يتقوا الله، فالتقوى هي سبيل النجاة.

والناظر بشيء من التدقيق في آيات القرآن، يجد مدح الله للمتقين، وثناءه عليهم، ويجد حُسن جزائهم وعاقبتهم في الدنيا والآخرة، وذلك لما للتقوى من أهميّة في حياة الناس.

وحقيقة التقوى هي أن نكون دائماً ممتثلين لأوامر الله؛ راجين رحمته ومغفرته ورضاه، مجتنبين نواهيه؛ مُتّقين غضبه وعذابه. قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ".²

¹ الحشر: 18.

² آل عمران: 102.

فالإيمان أجلّ وأسمى درجة من درجات الإسلام، والتقوى درجة متقدمة من درجات الإيمان. والمتّقون هم صفة من المؤمنين: نفوسهم صافية، وقلوبهم مطمئنة، وهممهم عالية، وضح الطريق أمام أبصارهم وبصيرتهم، وارتقوا في سلّم الإيمان درجات متقدّمة.

ودرجات المؤمنين المتّقين أعلى وأجلّ من درجات المؤمنين الأبرار، ومن ارتقى في درجات التقوى وصل إلى درجات الإحسان، ليبدأ بعد ذلك مرتقى آخر في مجالات العبادة والعبودية والرضا والشكر... وسنرى مصداق ذلك في حنايا هذا البحث.

تعريف التقوى

جاء في السلوك الإسلامي القويم للشوكاني: وأما التقوى فهي مصدر، والمتقى اسم فاعل من قولهم: وقاه فانقى. وفي الشريعة: هو الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك.

وفي التعريفات للجرجاني:

التقوى في اللغة: بمعنى الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية. وعند أهل الحقيقة: هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك. والتقوى في الطاعة: يراد بها الإخلاص، وفي المعصية: يراد بها الترك والحذر. وقيل: أن يتقى العبد ما سوى الله تعالى، وقيل: المحافظة على آداب الشريعة، وقيل: مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى، وقيل: ترك حظوظ النفس ومباينة النهي، وقيل: ألا ترى نفسك خيراً من أحد، وقيل: ترك ما دون الله. والمتبع عندهم، هو الذي اتقى متابعة الهوى، وقيل: الاهتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلاً. انتهى.

وأقول: ولعلّ ذلك كلّ مراد من التقوى، وملاحظ أن يكون يانعا من ثمراته الطيّبات. ولعلّ إجابة المسؤولين عن التقوى بهذا مراعاة لحال السائل وحاجته لذلك أكثر من غيره.

ذكر التقوى في القرآن الكريم

نورد فيما يأتي بعضاً من مظاهر اهتمام القرآن الكريم بالتقوى.

أولاً – ورد الأمر " اتقوا الله " في خمسة وخمسين موضعاً، في أربع وخمسين آية. وجاءت كلمة: " المتقون " في ستة مواضع، في ست آيات. وجاءت كلمة: متقين، في ثلاثة وأربعين موضعاً، في ثلاث وأربعين آية. وجاء قوله سبحانه " وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ "، في ثلاثة مواضع، في ثلاث آيات. وكذلك قوله سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ يَجِبُ الْمُتَّقِينَ "، كذلك في ثلاثة مواضع، وفي ثلاث آيات.¹

ثانياً – من أخصّ صفات المتقين:

من أخصّ صفات المتقين ما جاء في الآيات الآتية:

أ – قال الله تعالى: " الم (1)

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2)

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ،

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ،

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ،

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5).²

ب – وقال جلّ شأنه: " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ

وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ،

¹ سيرد ذكرها مفصلة قريباً.

² الآيات من سورة البقرة.

وَالْمَلَائِكَةِ، وَالْكِتَابِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى، وَالْيَتَامَى، وَالْمَسَاكِينَ، وَابْنَ السَّبِيلِ، وَالسَّائِلِينَ، وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ".¹

وفي هذه الآية زيادة: الوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء.

ج - وقال عزّ من قائل: " وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ".²

ثالثاً - بعض الصور من ذكر القرآن الكريم للمتقين:

1 - اقترنت معية الله مع المتقين في ثلاثة مواضع، كلها في القتال: (قتال المعتدين، وقتال المشركين، وقتال الكافرين).

قال الله سبحانه: " فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ، فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ. وَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".³

وقال سبحانه: " وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".⁴

وقال سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".⁵

¹ البقرة: 177.

² الزمر: 33.

³ البقرة: 194.

⁴ التوبة: 36.

⁵ التوبة: 123.

وفي هذا دلالة على نصر المؤمنين. لأنّ من كان الله معه فلا غالب له.

2 – إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

قال تعالى: " فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ. قَالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"¹.

3 – البشارة للمتقين في الدنيا والآخرة.

قال سبحانه وتعالى: " وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا: مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ: (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ. كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ: (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ، يَقُولُونَ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) "².

4 – ولاية الله للمتقين:

قال سبحانه وتعالى: " وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَاللَّهُ وَلِيٌّ الْمُتَّقِينَ"³.

من ثمرات التقوى

¹ المائدة: 27.

² الآيات من سورة النحل.

³ الجاثية: 19.

أولاً - قال الله تبارك وتعالى: " يا أيُّها الذين آمنوا إن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ " ¹.

الخطاب هنا للمؤمنين، فما ثمرة التقوى التي وعدهم الله في هذه الآية:

1- يجعل لكم فرقانا: هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل. وفتحاً ونصراً في الدنيا، وسعادة ومخرجا ونجاة في الدنيا والآخرة.

2 - ويكفر عنكم سيئاتكم: يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم بينكم وبينه. ويغفر لكم: يغطيها، فيسترها عليكم، فلا يؤاخذكم بها.

ثانياً - ومن أهم وأعظم ثمرات التقوى: حبّ الله تعالى للمتقين.

1 - قال سبحانه وتعالى: " بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " ².

2 - وقال سبحانه وتعالى: " إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا، وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا، فَآتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " ³.

3 - وقال سبحانه وتعالى: " كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " ⁴.

¹ الأنفال: 29.

² آل عمران: 76.

³ التوبة: 4.

⁴ التوبة: 7.

نلاحظ هنا في الآيات الثلاث، قوله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ". ونلاحظ كذلك

التأكيد على الوفاء بالعهود، في الآيات الثلاث ! فكأنّ محبة الله للمتقين كانت بسبب وفائهم للعهود، وإتمامهم لها، واستقامتهم عليها.¹

ذكر التقوى في السنة المطهرة

جاء في صحيح مسلم، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ النَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ ".²

في شرح النووي على مسلم: قوله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ النَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ "، المراد بالغنى غنى النفس، هذا هو الغنى المحبوب، لقوله صلى الله عليه وسلم: " وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ ".

وجاء حول معنى هذا الحديث في نزهة المتقين شرح رياض الصالحين (للدكتور مصطفى الخن وآخرين):

الغني: غني النفس. العبودية لله: أفضل أوصاف المكلف. وهي أقصى درجات الخضوع والانقياد للأوامر والمنهيات الشرعية. والنقي: الممتثل للأوامر؛ المجتنب للنواهي. الخفي: الخامل الذكر الذي لا يعرف بين الناس؛ والمنقطع لعبادة ربه.

وعن عطية بن عروة السعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ، حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ ". رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.³

وأخرج ابن ماجه بإسناد صحيح، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: " كُلُّ مَحْمُومٍ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ ". قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما محموم القلب؟ قال: " هُوَ النَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ ".⁴

¹ نلاحظ هنا قاعدة أخلاقية سامية، قائمة على: الوفاء بالعهود، بين العبد وبين الله تعالى، وبين الناس بعضهم مع بعض.

² الحديث رقم 5266.

³ الترمذي في الزهد، باب: من درجات المتقين. وضعفه الألباني.

⁴ صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج3، ص:22.

منبع التقوى ومكانها

منبع التقوى ومكانها القلوب.

قال سبحانه وتعالى: " ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ " ¹.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ – بِحَسَبِ امْرَأَةٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعَرِضُهُ، وَمَالُهُ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ". قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: ² رواه مالك، والبخاري، ومسلم واللفظ له.

وجاء في شرح النووي على مسلم ³: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَارٍ " وَفِي رِوَايَةٍ " إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ " مَعْنَى الرِّوَايَةِ الْأُولَى: أَنَّ الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ لَا يَحْصُلُ بِهَا التَّقْوَى، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ بِمَا يَقَعُ فِي الْقَلْبِ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَشْيَتِهِ وَمَرَاقَبَتِهِ. وَمَعْنَى نَظَرِ اللَّهِ هُنَا: مُجَازَاتِهِ وَمُحَاسَبَتِهِ. أَي: إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ دُونَ الصُّورِ الظَّاهِرَةِ.

وَنَظَرُ اللَّهِ رُؤْيَتَهُ مُحِيطًا بِكُلِّ شَيْءٍ. وَمَقْصُودُ الْحَدِيثِ: أَنَّ الِاعْتِيَارَ فِي هَذَا كُلِّهِ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً " الْحَدِيثِ. انْتَهَى.

جاء في صحيح الترغيب والترهيب للألباني ⁴: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يقول: " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ صِفَالَةً، وَإِنَّ صِفَالَةَ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللَّهِ. وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ

¹ الحج: 32.

² تحت رقم: 2885.

³ ج: 8، باب تحريم ظلم المسلم وخذله.

⁴ تحت رقم 1495، وقال: صحيح لغيره.

من ذكر الله". قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟! قال: "ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع". رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي، من رواية سعيد بن سنان، واللفظ له. انتهى.

وإنما مثل القلب هنا مثل المرأة، فكلمًا كانت المرأة جيّدة، وصقيلة، ونظيفة، كانت الصورة المعكوسة فيها نقيّة وواضحة.

وفي هذا البحث محاولة للرقّي بالقلوب السليمة بهذا الاتجاه.

كيف نتحصل على التقوى

كما مرّ معنا، فالتقوى بضاعة نفيسة، ومُستقرّها عند أصحاب الهمم العالية، وهي طلبة غالية، بعيدة عن أصحاب النفوس الرخيصة، والأخلاق الخسيصة.

ولمّا كان للتقوى هذه المنزلة، فقد كانت السبل الموصلة إليها شريفة سامية، دلّنا عليها القرآن الكريم، وأرشدنا إليها الرسول محمد عليه أزكى الصلاة وأطيب التسليم... ومن هذه السبل:

1 — العبادة

التقوى ثمرة العبادة وهدفها، كما قال الله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"¹.

وبين العبادة والتقوى ترابط وثيق. وتحقيق أيّ منهما يحقق الأخرى ويزيد فيها، بل تكاد كلّ منهما تحلّ محلّ الأخرى.

وكما أنّ التقوى هي الغاية من العبادات عامّة، فهي الغاية من إرسال الرسل عليهم جميعا الصلاة والسلام. نلمس ذلك جليًا في سورة الشعراء، فضلًا عن أمثلة في سور: البقرة، والأعراف، والمؤمنون.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ "².

¹ البقرة: 21.
² الأعراف: 65.

وقال سبحانه وتعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ " ¹.

وقال سبحانه وتعالى: " إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ " ².

يقول سيّد قطب في موسوعته " في ظلال القرآن " تعليقا على الآية الأنفة الذكر :

العبادة: إنه النداء إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم. ربهم الذي تفرد بالخلق، فوجب أن يتفرد بالعبادة.. وللعبادة هدف لعلم ينتهون إليه ويحققونه: " لعلكم تتقون "... لعلكم تصيرون إلى تلك الصورة المختارة من صور البشرية. صورة العابدين لله. المتقين لله. الذين أدوا حق الربوبية الخالقة، فعبدوا الخالق وحده؛ رب الحاضرين والغابرين، وخالق الناس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسماء بلا ند ولا شريك.

2 – الصيام

الصوم عبادة تترك في القلوب صفاء خاصًا، وتضفي على الأرواح رقة، وترسم على النفوس أثرًا، تختلف عن آثار غيرها من العبادات.

ونقصد هنا: الصوم على حقيقته، الصوم الذي يرقى بصاحبه إلى درجات أعلى، ومقامات أسمى.

قال سيّد قطب معقباً على الآية: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " ³:

وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم.. إنها التقوى.. فالتقوى هي التي تستيقظ في القلوب وهي تؤدي هذه الفريضة، طاعة لله، وإيثاراً لرضاه. والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال. والمُخَاطَبُونَ بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه. فهي غاية تتطلع

¹ المؤمنون: 23.

² الشعراء: 142. وانظر كذلك الآيات: 106، و 124، و 161، و 177 من السورة نفسها.

³ البقرة: 183.

إليها أرواحهم. وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتجهون إليه عن طريق الصيام.. " لعلكم تتقون ". انتهى.

3 – التقرب بالنوافل بعد الفرائض

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ... ". الحديث.¹

والنوافل تشمل الصلاة، والصيام، والصدقات، والعبادات كافة.

جاء في سنن النسائي: عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سَفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رُكْعَةً، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ " صححه الألباني.²

وقد بينت بعض الروايات أنها سوى المكتوبة: " أَرْبَعِ رُكْعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرُكْعَتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ، وَرُكْعَتَيْنِ قَبْلَ العَصْرِ، وَرُكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وَرُكْعَتَيْنِ قَبْلَ الصُّبْحِ ".³

وفي رواية: " وَرُكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ "، بدل: " وَرُكْعَتَيْنِ قَبْلَ العَصْرِ ".

اللهم اجعلنا من المؤمنين الأبرار، ومن المتقين الأخيار، يا مُكَوِّرَ الليل على النهار.

أقوال في التقوى

— جاء في السلوك الإسلامي القويم للشوكاني³:

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: " هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ " قال: هم الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، أو يرجون رحمته في التصديق بما جاء منه.

¹ رواه البخاري في الرقاق، باب: التواضع.

² السلسلة الصحيحة: 2347.

³ ج: 1، الباب: التقوى.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه لما سئل: ما التقوى؟ قال: هل وجدت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عدلت؛ أو جاوزته؛ أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى.

وقال أبو الدرداء: تمام التقوى، أن يتقي الله العبدُ حتى يتقيه من متقال الذرة؛ حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال؛ خشية أن يكون حراماً؛ يكون حجاباً بينه وبين الحرام. انتهى.

— عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فِي قَوْلِهِ: " اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ "، قَالَ: أَنْ يُطَاعَ وَلَا يُعْصَى، وَأَنْ يُشْكَرَ وَلَا يُكْفَرَ، وَأَنْ يُذْكَرَ، وَلَا يُنْسَى.¹

وفي سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي²:

— سئل علي رضي الله تعالى عنه، عن التقوى، قال: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

— وجاء في الرسالة القشيرية³: علامة التقوى الورع، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات.

وقيل⁴: يستدل على تقوى الرجل بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما قد فات. انتهى.

— وفي حلية الأولياء⁵: عن طلق بن حبيب، وقد وصف التقوى: اعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله. والتقوى ترك المعاصي على نور من الله، مخافة عقاب الله عز وجل.

— ويقول سيّد قطب⁶: قوله تعالى: " وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ " — وعلى عادة القرآن في إيقاظ الضمير، واستجاشة الشعور كلما هم بالتكليف، ليستمد التكليف دفعته من داخل النفس، لا من مجرد ضغط النص —

¹ المعجم الكبير للطبراني، ج: 7، الباب: 2، تحت رقم: 8423.

² ج: 1، ص: 421.

³ ج: 1، باب يوسف بن الحسين.

⁴ نفس المصدر السابق، باب الخلوة والعزلة.

⁵ ج: 1، باب طلق بن حبيب.

⁶ في ظلال القرآن، آخر آية الدين في أواخر سورة البقرة.

يدعو المؤمنين إلى تقوى الله في النهاية؛ ويذكرهم بأن الله هو المتفضل عليهم، وهو الذي يعلمهم ويرشدهم، وأن تقواه تفتح قلوبهم للمعرفة وتهبىء أرواحهم للتعليم، ليقوموا بحق هذا الإنعام بالطاعة والرضا والإذعان: " وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ".¹ انتهى.

اللهم اجعلنا ممن يوفون بعهودهم، ويصدقون بوعودهم، واجعلنا من عبادك المتقين الأبرار، الذين تحبهم ويحبونك يا ذا الجلال والإكرام.

الفصل الثالث - الإحسان

وفيه: تمهيد؛ وتعريف الإحسان؛ وذكر الإحسان في القرآن الكريم، وفيه: من صور الإحسان، وبعض صفات المحسنين، ومن ثمرات الإحسان؛ ونصوص نبوية في ذكر الإحسان؛ وأقوال في الإحسان؛ والإحسان والإخلاص، والإحسان وحسن الخلق.

تمهيد

إِنَّ أَحْسَنَ الْحَسَنِ، أَنْ نَأْخُذَ بِأَحْسَنِ الْحَسَنِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَحْسَنِ.

قال الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: " وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ "،² فكل واحد منا مأمور بالإحسان بمقتضى هذه الآية.

فالإحسان إلينا وعلينا من الله سبحانه أولاً، حين خلقنا، وأنعم علينا، وهدانا للإيمان. وأعظم بها من نعمة. ونسأله تعالى أَنْ يُحْسِنَ إلينا في الآخرة، فَيَمُنَّ عَلَيْنَا، وَيَقِينَا عَذَابَ السَّمُومِ، وَأَنْ يَجْعَلَ مَسْتَقْرَرًا فِي دَارِ رَحْمَتِهِ وَكَرَامَتِهِ.

¹ البقرة: 282.

² القصص: 77.

ومرتبة الإحسان من عليا المراتب في الإسلام. والإحسان من أعلى مقامات الطاعة. والإحسان سبيل موصل لمحبة الله تعالى.

والإحسان الذي نقصد هنا هو الإحسان الشرعي، كما عرفه النبي صلى الله عليه وسلم، بقوله: " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تُكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ". وكل ما ورد في هذا البحث خلافا لهذا المعنى السامي، فإنما هو على سبيل الوسيلة الموصلة للإحسان المعروف شرعاً، حيث هو الهدف والغاية.

وسأتكلم في هذا الفصل حول بعض ثمرات الإحسان السامية، وعن أثر الإحسان على المحسن وعلى غيره، وكيف يكون الإحسان سبباً لمحبة الله تعالى.

تعريف الإحسان

جاء في القاموس الفقهي للدكتور سعدي أبو جيب:

الإحسان: الإنعام على الغير. وفي القرآن الكريم: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ "¹. والإحسان فوق العدل. وذلك لأن العدل: هو أن يعطي ما عليه؛ ويأخذ ماله. والإحسان: أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له. فالإحسان زائد عليه.

فتحري العدل واجب. وتحري الإحسان ندب وتطوع.

ولذلك عظم الله ثواب أهل الإحسان فقال سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ "².

وفي الشريعة: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. انتهى.

وجاء في التعريفات للجرجاني:

¹ النحل: 90.

² المائدة: 13.

الإحسان: هو التحقق بالعبودية؛ على مشاهدة حضرة الربوبية؛ بنور البصيرة. أي: رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته. فهو يراه يقيناً... ولا يراه حقيقة¹.

ولغة: فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير. انتهى.

ذِكْرُ الإِحْسَانِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

حثّ الإسلامُ المسلمين على كلّ خير، ونهاهم عن كلّ شرّ. وبيّن ثواب الأعمال الجليلة، والأخلاق الفاضلة، طالبا من كلّ مسلم أن يسمو بروحه ونفسه نحو معالي الأمور، ومكارم والأخلاق.

والإحسان على القمّة من مكارم الأخلاق.

ومن مظاهر اهتمام القرآن الكريم بالإحسان والمحسنين، أن وردت كلمة: "حسن" ومشتقاتها في القرآن الكريم، في أكثر من مئة وتسعين موضعاً. ووردت: "محسنين" في ثلاثة وثلاثين موضعاً، في ثلاث وثلاثين آية.² بينما جاءت صيغة: "الله يحب المحسنين" في مواضع خمسة، في آيات خمس.³

من صور الإحسان في القرآن الكريم:

قدّم لنا القرآن الكريم صوراً متنوعة من صور الإحسان، لها ارتباط وثيق بغيرها من لوازم شرعنا وقيمه السامية. ونستعرض سوياً فيما يأتي بعضها منها:

أولاً – الإحسان إلى النفس.

1 – فمن أحسن، أحسن لنفسه. قال الله سبحانه وتعالى: "إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ

4 ."

¹ وذلك في الدنيا. أما في الآخرة فروية المؤمنين في الجنة لربهم ثابتة، كما ورد في القرآن الكريم، وفي الحديث الصحيح.

² وجاءت "محسنون" هكذا بالرفع، مرّة واحدة، في الآية: 123 من سورة النحل.

³ سيأتي تفصيلها في هذا الفصل.

⁴ الإسراء 7.

2 – وَمَنْ أَحْسَنَ، فَلَهُ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ لَه الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى¹: " لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ"².

فَالْحُسْنَى هِيَ: الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى الْكَرِيمِ. وَذَلِكَ لِأَهْلِ كِرَامَتِهِ فِي الْآخِرَةِ.

3 – وَمَنْ أَحْسَنَ، كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ أَسْوَأَ مَا عَمِلَ، وَجَزَاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَ. قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: "

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ
اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)"³.

ثَانِيًا – الْإِحْسَانُ إِلَى غَيْرِهِ، وَفِيهِ:

1 – الْإِحْسَانُ إِلَى الْوَالِدِينَ: فَقَدْ حَتَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدِينَ.

فَجَاءَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: " وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا "، فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ⁴، فِي أَرْبَعِ سُورٍ.

وَجَاءَ فِي مَوْضِعٍ خَامِسٍ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: " وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا"⁵.

وَجَاءَ فِي مَوْضِعٍ سَادِسٍ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: " وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا"⁶.

2 – الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"⁷.

ثَالِثًا – الْإِحْسَانُ وَالْعَدْلُ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالْإِحْسَانِ"¹.

¹ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى: الْمُحْسِنُ.

² يُونُسَ 26.

³ سُورَةُ الزَّمْرِ.

⁴ الْآيَةُ 83 مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَالْآيَةُ 36 مِنْ سُورَةِ النَّسَاءِ، وَالْآيَةُ 151 مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَالْآيَةُ 23 مِنْ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ.

⁵ الْأَحْقَافَ 15.

⁶ الْعَنْكَبُوتَ 8.

⁷ الْبَقَرَةَ 83.

رابعاً – الإحسان والدعوة إلى الله، قال الله سبحانه وتعالى: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " .²

خامساً – الإحسان والإيمان

استخدم القرآن الإحسان محل الإيمان، وضد الكفر، وذلك في قول الله سبحانه وتعالى: " وَمَا لَنَا لَأَن نُّؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ " .³

بعض صفات المحسنين

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19) " .⁴

من ثمرات الإحسان

أولاً – قرب رحمة الله تعالى من المحسنين. قال الله تبارك وتعالى: " إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " .⁵

ثانياً – ورد ذكر الصبر مقترنا بالإحسان، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين، في أربعة مواضع، هي الآتية:

¹ النحل 90.

² النحل 125.

³ سورة المائدة.

⁴ سورة الذاريات.

⁵ الأعراف: 56.

1 - قول الله سبحانه: " مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " ¹.

فَذَكَرَ الصَّبْرَ هُنَا وَاقْعَا وَفَعَلًا.

2 - قول الله سبحانه: " وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " ².

وذكر الصبر هنا على سبيل الأمر به.

3 - قول الله سبحانه: " إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " ³.

وذكر الصبر هنا مقترنا بالتقوى على سبيل المدح.

وقد جاء في المواضع الثلاث، قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ".
ونلاحظ ورود: إن، و لفظ الجلالة: الله، في المواضع الثلاث.

4 - قول الله سبحانه: " وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " ⁴.

¹ التوبة: 120.

² هود: 115.

³ يوسف: 90.

⁴ يوسف: 56.

جاء اللفظ القرآني هنا: " وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ " مختلف عنه في الآيات الثلاث السابقة. فهنا حيث تم التمكين ليوسف صلى الله عليه وسلم في الأرض – بعد معاناته وصبره طبعاً – ونال من رحمة الله في هذه الدنيا.¹ بينما أفاد السياق في الآيات الثلاث قبلها بأن أجر الصابرين سيكون في الدار الآخرة!. فاختلف اللفظ ليتناسب مع السياق! والله أعلم.

ثالثاً – ومعية الله تعالى مع المحسنين، ومن كان الله معه فقد حاز أسباب النصر والتأييد، والفوز في الدارين. قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ "². وقال سبحانه وتعالى: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ "³.
وَمَنْ وَجَدَ اللَّهَ فَمَاذَا فَقَدَ؟ وَمَنْ فَقَدَ اللَّهَ فَمَاذَا وَجَدَ؟.

رابعاً – المحسنون على هدى من ربهم، والمحسنون هم المفلحون، وذلك بشهادة الله تعالى لهم. قال الله تعالى:
" اَلَمْ (1) تَلِكْ اَيَّاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) اُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) ".⁴

وقال تعالى: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (42) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (44) ".⁵

¹ فضلاً عما سيناله في الآخرة.

² النحل: 128.

³ العنكبوت 69.

⁴ لقمان.

⁵ المرسلات.

جدير بالذكر هنا، أن اللفظ القرآني: " كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " تكرر في تسعة مواضع، جاء في ثمانية مواضع منها بعد التحدث عن الرسل والأنبياء السابقين، عليهم الصلاة والسلام جميعاً.¹ وفي الموضع التاسع في الآية: 44 من سورة المرسلات، جاء بعد ذكر المتقين العاملين!.

وَيُبَيِّنُ ذَلِكَ الْإِرْتِبَاطَ الْوَثِيقَ بَيْنَ الْإِحْسَانِ وَالتَّقْوَى. وَلَعَلَّ فِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ التَّقْوَى وَالتَّمَتُّقِينَ.

خامساً – وثمرات الإحسان كثيرة ومتنوعة، أعلاها وأجلها حبّ الله للمحسنين.

وفيما يأتي نرى كيف يكون الإحسان سبباً في محبة الله سبحانه للعبد المحسن.

حيث اقترن اللفظ القرآني: " اللَّهُ يُحِبُّ "، مع لفظ: " الْمُحْسِنِينَ "، في مواضع خمسة²، هي

الآتية:

1 – قال سبحانه وتعالى: " وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " ³.

فالإنفاق في سبيل الله تعالى، له رباط وثيق بالإحسان، بل هو من أسباب محبة الله تعالى للعبد المتصف بذلك.

2 – وقال الله سبحانه وتعالى: " وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ

¹ الأنعام: 84، ويوسف: 22، والقصاص: 14، والصافات: 80، 105، 110، 121، 131)، وما تحته خط هنا كان مع سيدنا إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم.
² من بين سبعة عشرة موضعاً في القرآن الكريم، توزعت على سبع خصال محبوبة. وبذلك يأخذ الإحسان نحو ثلث آيات المحبة.
³ البقرة 195.

(135) أُولَئِكَ جَزَاءُ وَّهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136) ".¹

ابتدأ الخطاب هنا بقوله سبحانه: " وَسَارِعُوا " والمسارعة: بذل أقصى الجهد في السباق للوصول إلى الهدف. والخطاب هنا للمتقين، وهم صفوة من المؤمنين. حيث عدت الآيات مجموعة من صفاتهم، ومن بين تلك الصفات: الإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والخوف من الله، والتوبة والاستغفار، والعمل بمقتضى الشرع الحنيف.

ومجموع تلك الصفات يجب أن تتحقق في العبد المحسن، لتكون من أسباب محبة الله تعالى له.

3 - وقال الله سبحانه وتعالى: " وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا
وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا
رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ
الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) ".²

وهنا مجموعة أسباب أخرى موجبة لمحبة الله تعالى للعباد: حيث ذكرت الآيات: قتال الكافرين، والصبر،
والدعاء والتضرع إلى الله تعالى. كل ذلك من صفات المحسنين الذين يُحبهم الله تبارك وتعالى.

4 - وقال الله سبحانه وتعالى: " فَبِمَا نَقَضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا
قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ".³

¹ آل عمران.
² آل عمران.
³ المائدة 13.

فالعفو، والصفح، سببان لازمان للمؤمنين المحسنين، وموجبان لمحبة الله تعالى.

5 – وقال الله سبحانه وتعالى: " لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"¹.

فمن آمن وعمل الصالحات، ثم ارتقى بتزكية نفسه وطاعة ربه فصار من المتقين، ثم كان من أئمة المتقين المحسنين، فقد استوجب حب الله سبحانه وتعالى له.

فمن عرف الله العظيم، وأيقن أنّ الله مُطَّلِعٌ عليه، خاف من الله واتقاه، ومن اتقى الله أطاعه فيما أمر ونهى، في سرّه وإعلانه، وذلك من علامات حبّ العبد لمولاه سبحانه في علاه. ومن غلبَ على قلبه حبّ الله استوجب حب الله له، ومن أحبّه الله صار مصدر خير ورحمة، لنفسه وللآخرين.

وتلك منزلة لا تتال بالتمني، بل بإيمان راسخ في القلوب، وعمل صالح يوصل إلى مرضاة علام الغيوب.

نصوص نبوية في ذكر الإحسان

جاء في صحيح البخاري،² وفي صحيح مسلم،³ في حديث جبريل عليه السلام، لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، فقال صلى الله عليه وسلم: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تُكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".

وفي رواية لمسلم: "أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".

وفي رواية في مسند أحمد: "أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تُكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ".

¹ المائدة 93.

² سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم.

³ أول كتاب الإيمان. بيان الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وهذا الحديث أساس في الإحسان: فمن عبَدَ اللهَ، وخشي اللهَ، وعمل لله، كأنه يراه، أحسنَ في كلِّ شيءٍ، في جميع حالاته، ومع الخلق جميعاً. وذلك من الأسباب الموجبة حبَّ الله تعالى.

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا نَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا النَّبْحَ، وَإِذَا أَحَدَكُمْ شَفَرْتَهُ، وَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ". رواه مسلم¹، واللفظ له، وأبو داود، والترمذي، وأحمد وغيرهم.

وفي شرح النووي على مسلم: هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْجَامِعَةِ لِقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ.

وفي تحفة الأحوذى²:

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ"، أَي: إِلَى كُلِّ شَيْءٍ. أَوْ: عَلَى بِمَعْنَى فِي، أَي: أَمَرَكُمْ بِالْإِحْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْعُمُومُ الشَّامِلُ لِلْإِنْسَانِ حَيًّا وَمَيِّتًا.

أقوال في الإحسان

يقول سيّد قطب³ تعليقا على قوله تعالى: " وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ": والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف... وبخاصة في نظام يقوم على التطوع، كما كان يقوم الإسلام. ثم يرتقي بهم من مرتبة الجهاد والإنفاق إلى مرتبة الإحسان: " وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ". وفي الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الْإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تُكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ "... وحين تصل النفس إلى هذه المرتبة، فإنها تفعل

¹ كتاب الصيد: باب الأمر بإحسان الذبح...

² ج: 4، باب ما جاء في النهي عن المثلة.

³ في ظلال القرآن.

الطاعات كلها، وتنتهي عن المعاصي كلها، وتراقب الله في الصغيرة والكبيرة، وفي السرِّ والعلن على السواء. انتهى.

وجاء في إحياء علوم الدين¹:

في الإحسان في المعاملة:

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً. والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال. والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح. ولا يُعدّ من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان. وقد قال الله: " وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ "، وقال عز وجل: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ "، وقال سبحانه: " إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ".

وفيه: قال الله عز وجل " هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ "، فقيل: الإحسان في الدنيا، قول: لا إله إلا الله؛ وفي الآخرة الجنة. ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده؛ وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى.

وفي الرسالة القشيرية للقشيري²: قال الفضيل: لو أن العبد أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين.

وقال الشيباني في مكفرات الذنوب وموجبات الجنة³:

قال الله تعالى: " إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ". فالإحسان في العمل، وعمل الصالحات، هو الذي يقرب من رحمة الله تعالى، وليست رحمته تتال بالتمني، ولكن شرطها الإحسان.

¹ ج: 1، باب في الإحسان في المعاملة.

² ج: 1، باب الخلق.

³ ج: 1، باب سعة رحمة الله تعالى.

الإحسان والإخلاص

عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَاجَرَتْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَّكِفُهَا، فَهَاجَرَتْ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ". مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ.¹

وفي شرح النووي على مسلم: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ... " الْحَدِيثُ. أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عِظَمِ مَوْقِعِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ، وَصِحَّتِهِ. انْتَهَى.

وقيل: من كمال الإحسان تمام الإخلاص... فالإحسان والإخلاص، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فلا إحسان بلا إخلاص.

وقيل عن الإخلاص: هو سرٌّ من أسرار الله أودعه قلوب من أحب من عباده، لا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده.

وجاء في إيقاظ الهمم شرح متن الحكم²:

الأعمال صورٌ قائمة؛ وأرواحها وجود سير الإخلاص فيها.

فالإخلاص من العمل، بمقام الروح مع الجسد.

فَتَفَكَّرْ يَا رِعَاكَ اللَّهُ!...

الإحسان وحسن الخلق

أقول في نهاية هذا الفصل: إن من لوازم وضرورات الإحسان، حسن الخلق، والترفع عن سفاسف الأمور.

1 رواه البخاري في بدء الوحي، وفي الإيمان، وفي العتق. ورواه مسلم في الإمارة.

2 بداية الجزء الأول.

عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ. وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيُبْلَغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ ".¹

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ ". رواه ابن ماجه في سننه، وحسنه الألباني.²

وفي المعجم الكبير للطبراني عَنْ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَاسِفَهَا ".³ صححه الألباني.⁴

وَمِنْ حُسْنِ الخُلُقِ الْمُتَعَلِّقُ بِالْإِحْسَانِ: الْحَيَاءُ.

جاء في شُعَبِ الإِيمَانِ للبيهقي⁵، عن محمد بن الفضل: الْحَيَاءُ يَتَوَلَدُ مِنَ النِّظَرِ إِلَى إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ، ثُمَّ مِنَ النِّظَرِ إِلَى جِفَانِكَ إِلَى الْمُحْسِنِ.⁶ فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ، رُزِقْتَ الْحَيَاءَ إِنْ شَاءَ اللهُ. انتهى.

اللَّهُمَّ يَا جَوَادَ، وَيَا مُحْسِنَ، وَيَا كَرِيمَ، أَحْسِنْ إِلَيْنَا، واجعلنا مِنْ أَحْسَنِ عِبَادِكَ الْمُحْسِنِينَ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى طَاعَتِكَ. اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ. واجعلنا مِمَّنْ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.

الفصل الرابع - الصبر

1 رواه الترمذي في سننه (ج 7 / ص 285)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وحسنه الألباني.

2 صحيح وضعيف سنن ابن ماجة. رقم الحديث: 4182.

3 في القاموس المحيط للفيروزبادي: والسَّفَافُ: الرَّذِيءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْأَمْرُ الْحَقِيرُ.

4 السلسلة الصحيحة - مختصرة، رقم الحديث: 1627.

5 ج 16، ص 240.

6 المراد هنا: إحسان الله تعالى إلى خلقه أجمعين.

وفيه: تمهيد؛ وتعريف الصبر؛ وذكر الصبر في القرآن الكريم؛ ونصوص نبويّة في فضيلة الصبر؛ وأقوال في منزلة الصبر؛ والصبر والرضا والشكر.

تمهيد:

قال الله سبحانه وتعالى مخاطباً عبده ونبيّه أيوب، صلى الله عليه وسلّم، ومادحاً له، ومثنيّاً على صبره: " وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ"¹.

وفي القرآن الكريم اهتمام كبير بالصبر وآثاره. فكلّ شأن من شؤون حياتنا يحتاج إلى الصبر. وكلّ العبادات، وجميع القربات يلزمها الصبر ولا ينفك عنها، ويُرَيِّنُها ويكملها.

" وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) "².

بل إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الصبر خلاصة لأعمال البرّ كافة. وهذه أمثلة عن ذلك:

— قال الله سبحانه وتعالى: " سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ "³، في سورة الرعد، بعد أربع آيات ذكر فيها الكثير من صفات الصالحين أولي الأبواب مُلَخَّصة لتلك الصفات الجميلة، والأعمال الجليلة.

— وفي سورة الفرقان، قال الله سبحانه وتعالى: " أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا "⁴، مبيّنة أجر وجزاء عباد الرحمن، حيث ذكرت السورة الكثير من صفاتهم وأعمالهم، مع أنّ الصبر لم يُذكر صراحة من بين تلك الصفات والأعمال.

¹ سورة ص: 44.

² سورة العصر.

³ الرعد: 24.

⁴ الفرقان: 75.

— وقل مثل ذلك عن الآية الكريمة: " وَجَزَا هُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا "،¹ فقد ذكرت الآيات قبلها في السورة الكثير من صفات الأبرارِ وأعمالهم وأقوالهم، مع أنه لم يرد أي ذكر لصفة الصبر خلال ذلك.

تعريف الصبر

في كتاب العين: الصبر في اللغة: نقيض الجزع.

وجاء في أساس البلاغة للزمخشري: ص ب ر: صبرت على ما أكره. وصبرت عما أحب.

وقال الجرجاني في التعريفات: الصبر: هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله إلى الله.

ذكر الصبر في القرآن الكريم

من دلائل اهتمام القرآن الكريم بالصبر، ذكره في مواضع كثيرة. فقد ذكر لمادة (ص ب ر) ومشتقاتها مئة وثلاثة مواضع. وتتوّعت صور ذكر الصبر في القرآن الكريم، حتّى شملت أساليب البلاغة جميعها. ومن صور ذلك:

أولاً — على سبيل الأمر به:

1 — أمر الله سبحانه نبيّه محمّداً صلى الله عليه وسلّم بالصبر في ثمانية عشر موضعاً، منها:

قول الله سبحانه وتعالى: " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ "،² والأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلم، أمرٌ لأمتّه.

2 — وأمرنا الله سبحانه، نحن المؤمنين، بالصبر كذلك:

¹ الإنسان: 12.
² الأحقاف: 35.

قال سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا
وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".¹

ثانياً – على سبيل المدح:

1 – الصبر من عزم الأمور:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ".²

2 – الصبر والتوكل:

ذُكر الصبرُ مقترنا بالتوكلِ في غير موضع، منها:

قال الله سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ".³

3 – الصبر والتقوى والإحسان:

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ".⁴

ثالثاً – ثمرة الصبر:

1 – معية الله مع الصابرين:

ذُكرت معية الله مع الصابرين في أربعة مواضع: موضعين في سورة البقرة، وموضعين في سورة الأنفال،

مُرتبة على النحو الآتي:

¹ آل عمران: 200.

² الشورى: 43.

³ النحل: 42.

⁴ يوسف: 90.

— قال الله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ " ¹.

وقال الله سبحانه: " قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ
قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ " ².

— وقال الله سبحانه: " وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا
وَتَذْهَبَ رِجْكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ " ³.

وقال سبحانه: " فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ " ⁴.

نلاحظ هنا أنّ معية الله للصابرين جاءت مرّة مع الصلاة حيث الوقوف بين يدي الله سبحانه، وفي مواضع
ثلاث حيث الوقوف والتحام الصفوف للجهاد في سبيل الله تعالى.

2 — محبة الله للصابرين ، وهي أعظم ثمرة:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَكَأَيُّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا
وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ " ⁵.

وهنا كانت محبة الله لهم بسبب صبرهم على الجهاد، ومستلزمات الجهاد، في سبيل الله سبحانه وتعالى.

3 — إنّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب:

¹ البقرة: 153.

² البقرة: 249.

³ الأنفال: 46.

⁴ الأنفال: 66.

⁵ آل عمران: 146.

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ " ¹.

وليس مثل ذلكم الجزاء إلا للصابرين.

نصوص نبوية في فضيلة الصبر

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، قَالَ: " مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أُدْخِرَهُ عَنْكُمْ. وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْ عَطَاءٍ خَيْرٌ وَأَوْسَعُ مِنَ الصَّبْرِ " . متفق عليه. ²

وفي رياض الصالحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: " يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " . رواه الترمذي، وَقَالَ: حديث حسن صحيح. ³ وفي رواية غير الترمذي: " احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ: أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا " . رواه أحمد، والطبراني.

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أفضل الإيمان الصبر والسماحة " ⁴.

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ — وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ — إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ " رواه مسلم ⁵، واللفظ له، وأحمد، وابن حبان.

¹ الزمر: 10.

² البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة. ومسلم في الزكاة، باب فضل التعفف والصبر. واللفظ لمسلم.

³ الترمذي في أبواب صفة القيامة، باب: ولكن يا حنظلة ساعة وساعة.

⁴ صححه الألباني في السلسلة الصحيحة مختصرة، انظر الحديث: 1495.

⁵ مسلم، في كتاب الزهد، باب المؤمن أمره كله خير.

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ".
منفق عليه¹.

وفي مسند أحمد²: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: " لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ " فَكُلُّ سُوءٍ عَمَلْنَا جُزِينَا بِهِ!؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ! أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَتَّصِبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ " قَالَ: بَلَى! قَالَ: " فَهُوَ مَا تَجْرَوْنَ بِهِ ".

يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك.

وبهذا اتضح أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء.

أقوال في منزلة الصبر

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: اعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد، إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور.³

ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: الصبر مطيئة لا تكبو؛ وسيف لا ينبو.⁴

وجاء في كتاب الكبائر للذهبي⁵:

عن الشعبي، أن شريحاً قال: إني لأصاب المصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات:

— أحمده إذ لم يكن أعظم منها.

— وأحمده إذ رزقني الصبر عليها.

¹ البخاري في الجنائز، باب زيارة القبور. ومسلم في الجنائز، باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

² مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه، رقم الحديث: 65.

³ المستطرف للأبشيبي، ج1: باب مدح التثبت ودم الجزع.

⁴ التمثيل والمحاضرة للثعالبي، ج1، ص: 9.

⁵ ج1: ص 76.

— وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو من الثواب.

— وأحمده إذ لم يجعلها في ديني.

وجاء في قوت القلوب لأبي طالب المكي¹:

والصبر أيضاً مقام أولي العزم من الرسل، الذين أمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالقدوة بهم، وباهى الله تعالى بهم عبده، فقال تعالى: " فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ".

وأيضاً فإن العزائم في الدين أولى من الرخص.

وفي المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي²:

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة، وأمر به، وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأتى على فاعله، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على التثبت في الأشياء، ومجانبة الاستعجال فيها، فمن ذلك قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ". فبدأ بالصبر قبل الصلاة، ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين.

فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والتثبت في حركاته وسكناته. وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد، وفات المستعجل غرضه أو كاد. انتهى.

وقال أحدهم: الصبر مُرٌّ لا يتجرَّعه إلاَّ حُرٌّ.

وجاء في كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن قيم الجوزية³:

في الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة

¹ ج: 1، باب فضل الصبر.

² ج: 1، مدح التثبت وذم الجزع.

³ ج: 1، الباب الرابع.

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره. فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي مالا يحسن إن كان خُلُقاً له ومَلَكَةً، سُمي: صبراً. وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبراً.

وأما الاصطبار فهو أبلغ من التصبر. فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة: فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر، فإنها تستدعي وقوعها بين اثنين.

فأمَرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حالة في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر، والمصابرة. فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى... فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها، فقال: " وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ". فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر، ففي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان. انتهى.

الصبر والرضا والشكر

جاء النصّ القرآني: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ " خاتمة لأربع آيات¹.
اقترن فيها وصف: " صَبَّارٍ " وهو المُكْتَر من الصبر، بوصف: " شكور "، وهو المُكْتَر من الشكر. صَبَّارٍ على البلوى، شَكُورٍ على النعماء .

وجاء في المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي²:

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا؛ وهو رأس المحبة. قيل له: متى يكون العبد راضياً عن ربه؟ قال: إذا سرتة المصيبة كما تسره النعمة.

¹ سورة إبراهيم، الآية: 5، ولقمان: 31، وسبأ: 19، والشورى: 33.
² ج: 1: باب الفصل الثاني في القناعة والرضا.

وفي صفة الصفوة لابن الجوزي¹: عن عبد الله بن عمر الكوفي قال: كان عندنا بالكوفة رجل قد خرج عن دنيا واسعة وتعبد. قال: وكان الفضيل بالكوفة في أيامه. قال: فقدم ابن المبارك، فقال له الفضيل: إن ها هنا رجلاً من المتعبدين قد خرج عن دنيانا، فامض بنا إليه ننظر عقله.

قال: فجاؤوا إليه وهو عليل، وعليه عباء، وتحت رأسه قطعة لبنة، قال: فسلم ابن المبارك عليه، ثم قال: يا أخي، بلغنا أنه ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله ما هو أكثر منه، فما عوضك؟ قال: الرضا بما أنا فيه. فقال ابن المبارك: حسبك. وقاما على ذلك.

وفي قوت القلوب²: وإنما كان سبب ترك سري السقطي السوق وزهده في الدنيا قوله: الحمد لله، لأنها كلمة رضا، ظهرت منه في موضع الاسترجاع للمصيبة، وذلك أنه بلغه أن الحريق وقع في سوقه فأحرق دكانه، فخرج في قطع من الليل، فاستقبله قوم، فقالوا: يا أبا الحسن، احترقت دكاكين الناس إلا دكانك، فقال: الحمد لله...

ثم تفكّر في ذلك، فقال: قلتُ الحمد لله في سلامة مالي، وهلاك أموال إخواني المسلمين. فتصدق بجميع ما كان في دكانه من السقط والآلة، كفارة لكلمته هذه، وخرج من السوق، فشكر الله له فعله، فزهّد في الدنيا، ورفع إلى مقام المحبة، فأوصله ترك الرضا إلى الرضا.

وبلغني عنه قوله: قلت كلمة، فأنا أستغفر الله منها ثلاثين سنة، يعني قوله: الحمد لله في تلك الحالة. انتهى.

اللهم أنت الباقي، الوارث، وأنت الرشيد، الصبور. اجعلنا من عبادك المؤمنين، الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، واجعلنا من الصادقين، المتقين.

خامسا وسادسا - التوب والتطهر

وفيه: تمهيد، وذكر التوب والتطهر في القرآن الكريم، وأحاديث شريفة في ذكر التوب والتطهر، وأقوال في التوب والتطهر، وحقيقة التوبة وشروطها.

تمهيد:

¹ ج: 1: باب نمير المجنون.
² ج: 1: باب ذكر أحكام مقام الرضا.

التوبة تكون من الذنوب ومن السيئات. والتطهر يكون من الأرجاس والأدناس الحسيّة منها والمعنويّة. والطهارة مطلوبة في الثوب، والبدن، والمكان، والنفس.

جاء في تفسير ابن كثير: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ"¹، أي: من الذنوب وإن تكرر غشيانه، "وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"، أي: المتزهين عن الأقدار والأذى. فإله سبحانه يُحبّ من عباده التوابين من الذنوب وإن تكرر الوقوع فيها، ويُحبّ المتطهرين منها؛ الحسيّة: كالأقدار والأذى والنجاسات، أو المعنويّة: كالوقوع في مثل الرياء أو الشرك عيادا بالله من ذلك، أو البذيء من القول أو الفعل؛ أجازنا الله من الوقوع في شيء من ذلك.

ذكر التوب والتطهر في القرآن الكريم

تنوّعت وتعدّدت صور التوب والتطهر في القرآن الكريم. ونورد بعضها فيما يأتي:

أولاً — على سبيل المدح

1 — ذكر الله سبحانه التطهّر والطهارة على سبيل المحبّة والمدح، في النفس والمكان.

أ — في النفس

قال الله سبحانه وتعالى: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا"².

وقال سبحانه وتعالى: "يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ"³.

ب — في المكان

قال الله سبحانه وتعالى: "وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"¹.

¹ البقرة: 222.

² الأحزاب: 33.

³ آل عمران: 42.

ثانياً – على سبيل الأمر، حيث أمرنا بذلك في غير موضع

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) ".²

2 – وقال سبحانه وتعالى: " وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ".³

3 – وقال سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ".⁴

والمتمل في هذه الآية، يلمس رقة النداء، وفيض العطاء، ولطف ربّ الأرض والسماء. ففيه الوعد بتكفير السيئات، ودخول الجنّات، وأفضل البشرى. إنّه عطاء أرحم الراحمين، للمؤمنين الموحّدين التائبين.

ثالثاً – ثمرة التوب والتطهر

1 – التوبة والإيمان وعمل الصالحات سبب لدخول الجنّات، وسبب لإبدال السيئات إلى حسنات

قال الله سبحانه وتعالى: " إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ".⁵

وقال سبحانه: " إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ".⁶

2 – الاستغفار والتوبة سبب للرزق، وكثرة الأموال والأولاد، والزيادة في القوّة

¹ البقرة: 125.

² سورة المُنْتَر.

³ المائدة: 6.

⁴ التحريم: 8.

⁵ مريم: 60.

⁶ الفرقان: 70.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ"¹.

3 – التوبة سبب للفلاح

قال الله سبحانه وتعالى: " وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"².

4 – ثمرة التوب والتطهر: أعظم ثمرة من ثمرات التوب والتطهر، هي محبة الله سبحانه وتعالى للتوَّابين

وللمتطهرين.

فالله هو التوَّاب ويحب التوَّابين. والله يريد ليُطَهِّرَ الْمُؤْمِنِينَ وهو يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ. وقد جمع سبحانه حبه لهما

في آية واحدة.

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"³.

وقال سبحانه وتعالى: " فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُطَهَّرِينَ"⁴.

أحاديث شريفة في ذكر التوب والتطهر

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ

وَأُتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً ". رواه البخاري.⁵

¹ هود: 52.

² النور: 31.

³ البقرة: 222.

⁴ التوبة: 108.

⁵ البخاري في الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة.

وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري¹، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة".² مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفي رواية لمسلم: " الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح".

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها".³ رواه مسلم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ — أو فيسبغ — الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء".⁴ رواه مسلم، وزاد الترمذي: " اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين".⁴

وفي المعجم الكبير للطبراني: عن أبي سعد الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له".⁵

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"⁶. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.⁷

¹ خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

² البخاري في الدعوات، باب التوبة. ومسلم في التوبة، باب الحض على التوبة.

³ مسلم في كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى.

⁴ مسلم في كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء. والترمذي في أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء.

⁵ قال الألباني: انظر حديث رقم: 6803 في صحيح الجامع.

⁶ ما لم يغرغر: أي: ما لم يصل إلى حالة لا تمكن الحياة بعدها عادة.

⁷ رواه الترمذي في الدعوات، باب التوبة مقبولة قبل الغرغرة.

وعن أبي عبد الله سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَنْظُرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ، وَيَدْهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يَفْرُقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى ". رواه البخاري.¹

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا... " الحديث.²

أقوال في التوب والتطهر

حول قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ". جاء في قوت القلوب³: أي يتولى الراجعين إليه من أهوائهم، المتطهرين له من المكاره، والتائب حبيب الله. وسئل أبو محمد سهل: متى يكون العبد التائب حبيب الله تعالى؟ فقال: حتى يكون كما قال الله تعالى: " التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ "، ثم قال: الحبيب لا يدخل في شيء لا يحبه الحبيب...

وكان سهل يقول: التوبة من أفضل الأعمال، لأن الأعمال لا تصح إلا بها، ولا تصح التوبة إلا بترك كثير من الحلال مخافة أن يخرجهم إلى غيره.

والاستغفار قوت التوابين ومفزع الخطائين، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: " اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ "، وقال تعالى: " أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ "، فابتدأ الاستغفار بالتوبة، وعقب التوبة بالاستغفار. فالاستغفار مع الذنب سؤال الستر من الله تعالى، ومغفرة الله تعالى لعبده في حال ذنبه ستره عليه وحلمه عنه.

¹ البخاري في الجمعة، باب الدهن للجمعة، وباب لا يفرق بين اثنين يوم الجمعة.
² رواه البخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً.
³ ج1: فضائل التوبة ووصف التوابين.

ويقال: ما من ذنب ستره الله تعالى على عبده في الدنيا إلا غفره له في الآخرة، إن الله تعالى أكرم من أن يكشف ذنباً كان قد ستره. وما من ذنب كشفه الله في الدنيا إلا جعل ذلك عقوبة عبده في الآخرة. فالله أكرم من أن يثني عقوبته على عبده. انتهى.

في حلية الأولياء¹:

قال حاتم الأصم: التوبة أن تتبه من الغفلة، وتذكر الذنب، وتذكر لطف الله، وحلم الله، وستر الله...

وفعل التائب في أربعة أشياء:

— أن تحفظ اللسان من الغيبة والكذب والحسد واللغو.

— والثاني أن تفارق أصحاب السوء.

— والثالث إذا ذكر الذنب تستحي من الله.

— والرابع تستعد للموت.

وعلامة الاستعداد للموت: أن لا تكون في حال من الأحوال غير راض عن الله.

فإذا كان التائب هكذا يعطيه الله أربعة أشياء، أولها:

— يحبه كما قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ "

— ثم يخرج من الذنب كأنه لم يذنب قط، كما قال صلى الله عليه وسلم: " التائب من الذنب كمن لا ذنب له "

— والثالث يحفظه من الشيطان لا يكون له عليه سبيل.

— والرابع يؤمنه من النار قبل الموت، كما قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ

ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ: أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ²."

¹ ج3: باب حاتم الأصم.

² فصلت: 30.

ويجب على الخلق أربعة أشياء:

— ينبغي لهم أن يحبوا هذا التائب كما يحبه الله تعالى، ويدعوا له بالحفظ.

— ويستغفروا له كما تستغفر له الملائكة، قال تعالى: " فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ".¹

— ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم.

— والرابع: أن ينصحوا للتائب كما ينصحون لأنفسهم.

حقيقة التوبة، وشروطها

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " الندم توبة ". رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم في المستدرک.²

وفي الرسالة القشيرية³:

فالتوبة أول منزل من منازل السالکين. وأول مقام من مقامات الطالبين.

وحقيقة التوبة في لغة العرب: الرجوع، يقال: تاب أي رجع. فالتوبة: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع، إلى ما هو محمود فيه.

فأرباب الأصول من أهل السنة قالوا: شرط التوبة، حتى تصح، ثلاثة أشياء:

1 — الندم على ما عمل من المخالفات.

2 — وترك الزلّة في الحال.

3 — والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي.

¹ غافر: 7.

² مسند أحمد، باب: مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وابن ماجه: باب ذكر التوبة. والحاكم في المستدرک، باب: الندم توبة.

³ ج1: باب التوبة.

فهذه الأركان لا بد منها، حتى تصحَّ توبته.¹

وفيها أيضاً:²

قال ابن عطاء: التوبة: توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة.

فتوبة الإنابة: أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته.

وتوبة الاستجابة: أن يتوب حياءً من كرمه.

وقيل لأبي حفص: لِمَ يُبْعَضُ التائبُ الدنيا؟ قال: لأنها دارٌ باشر فيها الذنوب. فقيل له: فهي أيضاً دار أكرمها الله فيها بالتوبة؟ فقال: إنه من الذنب على يقين، ومن قبول توبته على خطر. وسئل عن التوبة، فقال: ليس للعبد في التوبة شيء!! لأن التوبة إليه، لا منه.

وقال رجل لرابعة: إني أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو نُتِبْتُ هل يتوب علي؟

فقالت: لا؛ بل لو تاب عليك لتبت. انتهى.

اللهم اجعلنا من التوابين، واجعلنا من المتطهرين، واجعلنا من عبادك الصالحين، يا رب العالمين.

الفصل السابع – التوكل

وفيه: تمهيد، وتعريف التوكل، وذكر التوكل في القرآن الكريم، وأحاديث شريفة في التوكل، وأقوال في التوكل،

وفضيلة التوكل.

تمهيد:

التوكل، هو الأخذ بجميع الأسباب الممكنة، والاعتماد على الله سبحانه في الشأن كله، وبعد ذلك الرضا،

حق الرضا، والتسليم لله سبحانه تعالى، بما قدر وقضى.

¹ وهناك شرط رابع: أن يردَّ الحقوق إلى أصحابها، إن كانت عليه حقوق.
² ج: باب المجاهدة.

يقول سيد قطب¹ عند قوله سبحانه: " فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"²

إن مهمة الشورى هي تقلاب أوجه الرأي، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد انتهى دور الشورى، وجاء دور التنفيذ... التنفيذ في عزم وحسم وفي توكل على الله، يصل الأمر بقدر الله، ويدعه لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء. انتهى.

تعريف التوكل

في كتاب العين:

وَكَلَّ: تَقَوْلُ: وَكَلَّتَهُ إِلَيْكَ، أَي: فَوَضَّعْتُهُ.

وفي التعريفات:

التوكل: هو الثقة بما عند الله، واليأس مما في أيدي الناس.

وفي القاموس الفقهي:

التوكل: مصدر تَوَكَّلَ.

التوكل عند الحنفية: هو الثقة بما عند الله تعالى، واليأس مما في أيدي الناس.

التوكل عند الشافعية: الاعتماد، وإظهار العجز.

وأصله الاستيثاق، والطمأنينة لله فيما عنده في جميع المواهب. وهو أعلى من اليقين.

والتوكل في قول ذي النون المصري: هو ترك تدبير النفس، والانحلال من الحول والقوة.

ذكر التوكل في القرآن الكريم

¹ في ظلال القرآن: ج1.

² آل عمران: 159.

التوكل ركن ركين، وأساس متين، وجزء أساس من هذا الدين. لذا نجد أثر ذلك في القرآن الكريم، حيث أمرنا الله سبحانه بالتوكل عليه، وأرشدنا إلى سبيل ذلك، وبيّن لنا عقبي المتوكلين. وجاء ذلك على صور، منها:

أولاً – إنما التوكل على الله وحده:

- 1 – قال الله سبحانه وتعالى: " قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ " ¹.
- 2 – قال الله سبحانه وتعالى: " اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ " ².
- 3 – قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " ³.

ثانياً – ربط التوكل بالإيمان:

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " ⁴.

ثالثاً – اقتران التوكل بالصبر:

قال الله سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " ⁵.

رابعاً – على سبيل الأمر به:

حيث جاء الخطاب القرآنيّ الأمر للنبيّ صلى الله عليه وسلّم: " توكل على الله "، في تسعة مواضع،

منها:

¹ الزمر: 38.

² التغابن: 13.

³ الأنفال: 49.

⁴ الأنفال: 2.

⁵ النحل: 42، والعنكبوت: 59.

قوله سبحانه وتعالى: " فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ " ¹.

وقوله سبحانه: " وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا " ².

خامساً – ثمرة التوكل

1 – المحبة: وهي أعظم الثمرات وأجلها

قال الله سبحانه وتعالى: " فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " ³.

2 – من توكل على الله فهو حسبه وكافيه

قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ " ⁴.

قال الله سبحانه وتعالى: " فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا " ⁵.

أحاديث شريفة في فضيلة التوكل

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقُولُ: " اللَّهُمَّ لَكَ أَسَلَمْتُ، وَبِكَ أَمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنْبَتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضَلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا تَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ " ⁶. مِنْفَقَّ عَلَيْهِ، ⁶ واللفظ لمسلم.

¹ النمل: 79.

² الأحزاب: 3.

³ آل عمران: 159.

⁴ الطلاق: 3.

⁵ النساء: 81.

⁶ البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: وهو العزيز الحكيم. ومسلم في الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَّمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْبِيُّ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذِ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَوْمُهُ. وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَظَنَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: أَنْظِرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخِرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ". ثُمَّ نَهَضَ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ. فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَائِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟! " فَأَخْبَرُوهُ. فَقَالَ: "هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْتُقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ". فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: "أَنْتَ مِنْهُمْ". ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: "سَبَّكَ بِهَا عَكَاشَةُ". متفق عليه،¹ واللفظ لمسلم.

وعن عمر رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا". رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.²

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ قَالُوا: "إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ؛ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا؛ وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ". رواه البخاري.³

¹ البخاري في الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره. ومسلم في الإيمان، باب الدليل في دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب.
² في أبواب الزهد، باب في التوكل على الله.
³ تفسير سورة آل عمران، باب: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم.

أقوال في التوكل

في السلوك الإسلامي القويم للشوكاني¹: وأما التوكل، فهو تفويض الأمر إلى الله في جميع الأمور.

وفي قوت القلوب²: التوكل من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقرّبين. قال الله الحق المبين: " إِنْ لَمْ يَجِبِ الْمُتَوَكِّلِينَ ". فجعل المتوكل حبيبه، وألقى عليه محبته.

وقال الله عزّ وجلّ: " وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ "، رفع المتوكلين إليه، وجعل مزيدهم منه.

وفي أدب الدنيا والدين³: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لَيْسَ مِنْ تَوَكُّلِ الْمَرْءِ إِضَاعَتُهُ لِلْحَزْمِ، وَلَا مِنْ الْحَزْمِ إِضَاعَةُ نَصِيْبِهِ مِنَ التَّوَكُّلِ. انتهى.

وفي حلية الأولياء للأصبهاني⁴:

عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه، أنه كان يقول: ذروة الإيمان: الصبر للحكم، والرضى بالقدر، والإخلاص في التوكل، والاستسلام للرب عز وجل...

وعن سعيد بن جبير⁵، قال: التوكل على الله جماع الإيمان.

وعنه، أنه كان يدعو: اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك.

وفي غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب⁶:

¹ ج1، باب الرضا.

² ج1، المقام السابع من مقامات اليقين.

³ ج1، فصل في البر.

⁴ ج1: الباب: أبو الدرداء رضي الله عنه.

⁵ ج2: الباب: سعيد بن جبير.

⁶ ج4: مطلب: في اتخاذ الرضا درعا.

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: وَالتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الرِّضَا كَسْبِيٌّ بِاعْتِبَارِ سَبَبِهِ، وَهَبِيٌّ بِاعْتِبَارِ حَقِيقَتِهِ، فَمَنْ تَمَكَّنَ بِالْكَسْبِ لِأَسْبَابِهِ وَغَرَسَ شَجَرَتَهُ اجْتَنَى مِنْهَا ثَمَرَةَ الرِّضَا، فَإِنَّهُ آخِرُ التَّوَكُّلِ، فَمَنْ رَسَخَ قَدَمُهُ فِي التَّوَكُّلِ وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّفْوِيضِ حَصَلَ لَهُ الرِّضَا وَلَا بُدَّ.

وعن حاتم الأصم¹:... وللزهد ثلاث شرايع، أولها الصبر بالمعرفة، والاستقامة على التوكل، والرضاء بالعطاء.

... وأما الاستقامة على التوكل، فالتوكل إقرار باللسان، وتصديق بالقلب. فإذا كان مقرا مصدقا أنه رازق لا شك فيه فإنه يستقيم. والاستقامة على معنيين: أن تعلم أن شيئا لك، وشيئا لغيرك. وأن كل شيء لك لا يفوتك، والذي لغيرك لا تناله ولو احتلت بكل حيلة. فإذا كان مالك لا يفوتك، فينبغي لك أن تكون واثقا ساكنا. فإذا علمت أنك لا تنال ما لغيرك، فينبغي لك أن لا تطمع فيه. انتهى.

وفي فتح الباري لابن حجر²: الدُّعَاءُ بِرَفْعِ الضَّرَرِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ، وَإِنْ كَانَ مَقَامَ الْأَفْضَلِ التَّفْوِيضِ. التَّوَكُّلُ لَا يَكُونُ مَعَ السُّؤَالِ، وَإِنَّمَا التَّوَكُّلُ الْمَحْمُودُ أَنْ لَا يَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ فِي شَيْءٍ، وَقِيلَ هُوَ قَطْعُ النَّظَرِ عَنِ الْأَسْبَابِ بَعْدَ تَهْيِئَةِ الْأَسْبَابِ.

وفي صفة الصفوة³: سأل رجل حاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا في التوكل على الله؟

قال: على خصال أربع:

— علمت أن رزقي لا يأكله غيري، فاطمأنت به نفسي.

— وعلمت أن عملي لا يعمل به غيري، فأنا مشغول به.

— وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادره.

— وعلمت أنني لا أخلو من عين الله حيث كنت، فأنا مستحي منه.

¹ ج3: الباب: حاتم الأصم.

² ج3: باب الاستسقاء في المسجد الجامع.

³ ج1: حاتم الأصم.

وفي قوت القلوب¹: إنما الزهد أن تكون بما في يد الله سبحانه وتعالى أوثق منك بما في يدك، فهذا مقام التوكل. انتهى.

ويقول سيد قطب²:

وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف، ويطمئن القلوب، ويثبتها على الحق الذي تتحاز إليه.

قال سبحانه وتعالى: " وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ (84) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) ".³

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه. وعنصر القوة الذي يضاف إلى رصيد القوة الضعيفة أمام الجبروت الطاعي فإذا هي أقوى وأثبت. انتهى.

وقيل إن رجلاً ضاقت به سبل العيش، فخرج هائماً، فلما وصل أطراف البادية رأى طائراً يُكثر من التردد على مكان بين الصخور، فراقبه ليقف على أمره، فوجد هذا الطائر يعتني بطائر آخر قد أقعده المرض عن السعي، ويجلب له الطعام والماء... فما كان من هذا الرجل إلا أن عاد سريعاً إلى صاحب له نصوح مشفق، وقال له: وجدت... وجدت... وقصّ عليه خبر الطائر، وقال: إن الله سيقبض لي من يأتيني بالرزق...

فقال له صاحبه: بل كن صاحب همّة عليّة، وأحسن التوكل على الله، والظنّ به سبحانه، وكن كالطائر الساعي، لا كالطائر القاعد... وإن ابتليت فاصبر لقضاء الله، فإن الله لا يخيب من لاذ به ورجاه، ويُعطي الجزيل لمن دعاه.

¹ ج1: كيفية الزهد في الدنيا.

² في ظلال القرآن.

³ سورة يونس.

فضيلة التوكل

في إحياء علوم الدين¹:

أعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه، ومضمون كفاية الله تعالى مُلَابِسُهُ، فَمَنْ اللهُ تَعَالَى حَسْبُهُ وَكَافِيَهُ وَمُحِبُّهُ وَمَرَاعِيَهُ: فَقَدْ فَازَ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ، فَإِنَّ الْمَحْبُوبَ لَا يُعَذَّبُ وَلَا يُبْعَدُ وَلَا يُحْجَبُ.

وفي حلية الأولياء²: سمعت أبا إسحاق يقول: ... التوكل على ثلاث درجات: على الصبر، والرضا، والمحبة. لأنه إذا توكل؛ وجب عليه أن يصبر على توكله لمن توكل عليه. وإذا صبر؛ وجب عليه أن يرضى بجميع ما حكم عليه. وإذا رضي؛ وجب عليه أن يكون محباً لكل ما فعل به موافقة له. انتهى.

وقال سهل التستري³: من طعن في الحركة (يعني: في السعي والكسب) فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل، فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم، والكسب سنته، فمن عمل على حاله، فلا يترك سنته... قال يوسف بن أسباط: كان يقال: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له... انتهى.

وخاتمة لهذه الفقرة، أقول:

¹ ج3: بيان فضيلة التوكل.

² ج4: باب: إبراهيم الخواص.

³ ج4: باب: سهل بن عبد الله التستري.

والناظر في سنة نبينا ورسولنا الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، يجد في حياته النموذج الأسمى للتوكل على رب العالمين. فهو صلى الله عليه وسلم أعرف الخلق بالخالق سبحانه وتعالى، وهو أشد الناس خشية لله سبحانه، وأكثرهم تقوى لله تعالى، وهو أكملهم، وأحسنهم، وأفضلهم توكلًا على مولاه جلّ شأنه وتباركت أسماؤه. ولنأخذ مثالًا عن ذلك، توكله على الله مولاه سبحانه، يوم هجرته، صلى الله عليه وسلم.

فما من سبب من الأسباب المادية التي يستطيعها البشر، إلا أخذ به النبي، صلى الله عليه وسلم.

فقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم رفيقًا للصحبة (سيدنا الصديقَ أبا بكر رضي الله عنه)، ودليلاً للطريق، وأعدّ الزاد والراحلة، وكنم الخبر عن الناس، وكلف سيدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام مكانه، وأن يؤدي الأمانات التي كانت للمشركين عند النبي صلى الله عليه وسلم — على عداوتهم له — إلى أهلها، وخرج في ساعة لا يخرج فيها الناس، واتّجه بدايةً إلى عكس الاتجاه المقصود، وكلف من يأتيه بالأخبار ليلاً ونهاراً، ومكث في الغار ثلاثة أيام بلياليها حتى خفّ عنه الطلب...

وكان صلى الله عليه وسلم في ذلك كلّ، مُعلّق القلب بمولاه، مُتوكلاً عليه حقّ التوكل، بعد أن أخذ بالأسباب التي أمر بها، فحفظه مولاه من أعدائه، من لحظة خروجه من بيته في مكة المكرمة، إلى أن وصل المدينة التي نورّها وشرّفها بوصوله إليها، حيث اتخذها مقرّاً ومقاماً، وأساساً لانطلاق دعوة الحقّ والخير والنور، وأخيراً دُفن فيها، في أظھر بقعة وأشرفها على وجه هذه الأرض.

اللهم صلّ على سيدنا محمد أفضل صلاة وأطيبها، وسلم عليه أكمل سلام وأتمّه، وبارك يا ربّ العالمين.

اللهم ارزقنا كمال التوكل عليك، وحسن الظنّ بك. اللهم ولا تكلنا إلى غيرك يا أكرم الأكرمين.

الفصل الثامن - القِسْطُ (العدل)

وفيه: تمهيد، وتعريف القِسْطِ والعدل، وذكر القِسْطِ والعدل في القرآن الكريم، وأحاديث نبويّة في ذكر القِسْطِ والعدل، وأقوال في القِسْطِ والعدل.

تمهيد:

الْعَدْلُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْبِرِّ. وبالعدل قامت السماوات والأرض. وبه تستقيم حياة الناس. وأيما مجتمع سادّه العدلُ صلحت فيه حياة الناس، وطابَ عيشُهم.

جاء في الأخلاق والسير لابن حزم¹:

وَجَدْتُ أَفْضَلَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمَرْءِ، أَنْ يَطْبَعَهُ عَلَى الْعَدْلِ وَحُبِّهِ، وَعَلَى الْحَقِّ وَإِثَارِهِ... أصول الفضائل كلها أربعة، عنها تتركب كل فضيلة، وهي: العدل، والفهم، والنجدة، والجود.

وأصول الرذائل كلها أربعة، عنها تتركب كل رذيلة، وهي أضداد الذي ذكرنا، وهي: الجور، والجهل، والجبن، والشح.

والأمانة والعفة، نوعان من أنواع العدل والجود.

¹ ج1: الباب: الأخلاق والسير.

وفيه¹: العدل حصن يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه، ولا ترى أحداً يذم العدل. فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين.

تعريف القسط والعدل

في تاج العروس:

القِسْطُ بالكسْرِ: العَدْلُ. قال الله تَعَالَى: " قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ " وهو كَقَوْلِهِ تَعَالَى: " إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ". يُقَالُ: قَسَطَ فِي حُكْمِهِ وَأَقْسَطَ، أَي: عَدَلَ فَهُوَ مَقْسُطٌ.

وفي أَسْمَائِهِ تَعَالَى الْحُسْنَى: الْمُقْسِطُ: هُوَ الْعَادِلُ. وَيُقَالُ: الْإِقْسَاطُ: الْعَدْلُ فِي الْقِسْمَةِ فَقَط. وفي العَيْن: الْإِقْسَاطُ: الْعَدْلُ فِي الْقِسْمَةِ وَالْحُكْمِ.

وفي الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري:

الفرق بين القسط والعدل: أن القسط هو العدل البين الظاهر. وقد يكون من العدل ما يخفى.

ذكر العدل والقسط في القرآن الكريم

من مظاهر اهتمام القرآن بالقسط والعدل في حياة الناس، أن تعددت صورهما واشتقاقتهما. وفيما يأتي بيان لبعض ذلك.

أولاً – أمرنا الله سبحانه بالقسط والعدل في كل شأننا، ومن ذلك:

¹ نفس المرجع. ج: 1. باب: أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها.

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ".¹

2 – وقال سبحانه وتعالى: " وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ".²

3 – العدل في القول:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ".³

4 – العدل في الحكم:

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ".⁴

5 – العدل في الشهادة، وأن لا يمنعنا شنان (أي: بغض) قوم عن أداء الشهادة بالقسط:

قال الله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ".⁵

6 – العدل (الوفاء) بالكيل والميزان:

¹ الأعراف: 29.

² الشورى: 15.

³ الأنعام: 152.

⁴ النساء: 58.

⁵ المائدة: 8.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَّا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا"¹.

7 – العدل والتقوى:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ"².

8 – العدل والإحسان:

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"³.

ثانياً – أعظم ثمرات العدل والقسط: هي محبة الله سبحانه وتعالى للمقسطين.

فقد أثبت الله سبحانه وتعالى محبته للمقسطين، وأكدها في نواح ومواضع ثلاث:

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"⁴.

وهنا حكم المسلمين بين فئتين من غير المسلمين.

2 – قال الله سبحانه وتعالى: " فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"⁵.

¹ الأنعام: 152.

² المائدة: 8.

³ النحل: 90.

⁴ المائدة: 42.

⁵ الحجرات: 9.

وهنا الحكم بين فئتين من المسلمين.

3 - قال الله سبحانه وتعالى: " لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " ¹.

وهنا الحكم بين المسلمين وغيرهم.

فالقسط مطلوب من المسلمين على كل حال، في كل مجال، مع جميع الناس. وهذا من مظاهر عظمة هذا الدين.

وقد نال المقسطون ثمرة عملهم أن أحبهم مولاهم سبحانه وتعالى. فأعظم به من خلق حسن جليل، وأعظم بها من ثمرة يانعة جلييلة.

أحاديث نبوية في القسط والعدل

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " . متفق عليه ².

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ: الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا " . رواه مسلم ³.

¹ الممتحنة: 8.

² البخاري في أبواب صلاة الجمعة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة. ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

³ باب الإمارة، باب فضل الإمام العادل وعقوبة الجائر.

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: "أهل الجنة ثلاثة: نُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٍ مُوَفَّقٍ، وَرَجُلٍ رَحِيمٍ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ نُو عِيَالٍ". رواه مسلم.¹

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَابِ بَيْتٍ فِيهِ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: وَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابِ، ثُمَّ قَالَ: "هَلْ فِي الْبَيْتِ إِلَّا قُرَشِيٌّ؟" قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غَيْرُ فَلَانِ ابْنِ أُحْتِنَا، فَقَالَ: "ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ". قَالَ: ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ مَا دَامُوا إِذَا اسْتَرْحِمُوا رَحِمُوا، وَإِذَا حَكَمُوا عَدَلُوا، وَإِذَا قَسَمُوا أَقْسَطُوا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ". رواه الإمام أحمد.²

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ، يُكذِّبُونَنِي، وَيَخُونُونَنِي، وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ، وَأَضْرِبُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ: "يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوَكَ وَكَذَّبُوكَ، وَعَقَابَكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ يَقْدِرُ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَأَنَّكَ وَلَا عَلَيْكَ. وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ، كَانَ فَضْلًا لَكَ. وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتَصَرَ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ". قَالَ: فَتَتَحَّى الرَّجُلُ، فَجَعَلَ يَبْكِي، وَيَهْتِفُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ".³ فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَجِدُ لِي وَلِهَوْلَاءِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أَشْهَدُكُمْ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ.⁴

أقوال في القسط والعدل

¹ في الجنة وصفة نعيمها وأهلها. باب الصفات التي يعرف بها في الجنة أهل الجنة وأهل النار.

² ج: 40. باب: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. أخرجه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب تحت رقم 2190، وقال: رواه أحمد ورواه ثقات، والبخاري، والطبراني.

³ الأنبياء: 47.

⁴ رواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب. وقال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي تحت رقم 3165: صحيح الإسناد.

يقول سيد قطب¹ تعليقا على قول الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " والرسولُ صلى الله عليه وسلم، والحاكم المسلم، والقاضي المسلم، إنما يتعامل مع الله في هذا الشأن؛ وإنما يقوم بالقسط لله. لأن الله يحب المقسطين. فإذا ظلمَ الناسُ، وإذا خانوا، وإذا انحرفوا، فالعدلُ فوق التآثر بكل ما يصدر منهم. لأنه ليس عدلاً لهم؛ وإنما هو الله.. وهذا هو الضمان الأكيد في شرع الإسلام، وقضاء الإسلام، في كل مكان، وفي كل زمان.

وفي حلية الأولياء²: سمعت وهب بن منبه يقول في قوله تعالى: " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ " قال: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، وإذا أراد الله بعبد خيراً ختم له بخير عمله، وإذا أراد به شراً ختم له بِشراً عمله.

وفي الأخلاق والسير لابن حزم³:

حدَّ العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه. وحد الجور أن تأخذه ولا تعطيه.

وحد الكرم أن تعطي من نفسك الحق طائعاً، وتتجافى عن حَقِّك لغيرك قادراً، وهو فضل أيضاً، وكل جود كرم وفضل، وليس كل كرم وفضل جوداً.

فالفضل أعم، والجود أخص، إذ الحلم فضل، وليس جوداً. والفضل فرض زدت عليه نافلة. انتهى.

اللهم مولانا، وفَّقنا للعدل في شأننا كلَّه، واجعلنا من عبادك وأحبابك المقسطين، يا رب العالمين.

¹ في ظلال القرآن: ج2.

² ج2: باب، وهب بن منبه.

³ ج1: باب الأخلاق والسير.

الفصل التاسع - الجهاد والمجاهدة

وفيه: تمهيد، وتعريف الجهاد والمجاهدة، وذكر فضائل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم، وأحاديث نبوية في فضائل الجهاد والمجاهدين، وأقوال في فضائل الجهاد والمجاهدين.

تمهيد:

الجهاد في سبيل الله "دُرُوءَ سَنَامِ الْإِسْلَامِ"¹ كما قال رسول الله عليه من مولاة أطييب الصلوات، وأزكى السلام. والجهاد باب من أبواب الجنة. والجهاد سبيل عزة المؤمنين، وطريق قهر المعتدين، وفيه الخزي والعار على المتكبرين الجبارين.

والجهاد حصن حصين، يصون البلاد، ويحمي العباد، ويكسر شوكة المعتدين ويدفع كيدهم في كلّ واد، ويرفع راية الحقّ خفاقة في كلّ ناد، وأهل الجهاد هم الفائزون يوم التتاد.

تعريف الجهاد والمجاهدة

وَالْجِهَادُ وَالْمُجَاهَدَةُ، مَصْدَرَانِ، لِقَوْلِكَ: جَاهَدَ، أَي: بَدَلَ الْجُهْدَ بِالضَّمِّ، وَهُوَ الطَّاقَةُ. وَتَحَمَّلَ الْجُهْدَ بِالْفَتْحِ، وَهُوَ الْمَشَقَّةُ فِي مَقَابِلَةِ الْعَدُوِّ وَالْقِتَالُ وَالْمَقَاتَلَةُ.²

الْجِهَادُ: قِتَالُ مُسْلِمٍ كَافِرًا غَيْرَ ذِي عَهْدٍ، لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ.³

(ج ه د): الجهد بفتح الجيم وضمها الطاقه. والجهد بالفتح المشقة. وجاهد في سبيل الله مجاهدة وجهاداً. والاجتهاد بذل الوسع والمجهود.⁴

¹ في مسند أحمد، باب حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "دُرُوءَ سَنَامِ الْإِسْلَامِ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".

² طلبية الطلبة للنسفي، كتاب السير، ج: 2.

³ شرح حدود ابن عرفة للأنصاري، كتاب الجهاد، ج: 1.

⁴ مختار الصحاح للرازي.

ذكر فضائل الجهاد والمجاهدين في القرآن الكريم

أولاً – اقترن ذكر الجهاد بالمال والنفس في مواطن كثيرة في القرآن الكريم. ومن صور ذلك:

1 – الجهاد بالمال والنفس من أسباب الفلاح

قال الله سبحانه وتعالى: " لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ¹."

2 – الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، من أسباب الفوز بالدرجات العلى عند الله تعالى.

قال الله سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ²."

3 – الإيمان الصادق والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله من علامات المؤمنين الصادقين

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ³."

ثانياً – الجهاد سبيل إلى كل خير

1 – الجهاد دليل على الصبر

¹ التوبة: 88.

² التوبة: 20.

³ الحجرات: 15.

قال الله سبحانه وتعالى: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ".¹

2 – الجهاد طريق موصل للهداية، وسبيل لنيل درجة الإحسان

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ".²

3 – الجهاد سبب للنجاة من العذاب الأليم

جاء اللفظ القرآني: " عَذَابٌ أَلِيمٌ " في ستة وأربعين موضعاً، وعدَّ الله سبحانه في معظمها الكافرين والمنافقين والخارجين عن أمره وشرعه بالعذاب الأليم.

ودلنا سبحانه على طريق النجاح وسبيل الفلاح والنجاة من العذاب الأليم، بقوله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (11)".³

ثالثاً – وأعظم ثمرة من ثمرات الجهاد العظيم محبة الله سبحانه وتعالى للمجاهدين. حيث أعظم الجهاد: وقوف المؤمنين متحدين متآلفين متراسين في وجه العدو.

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُومٌ".⁴

أحاديث نبوية في ذكر فضائل الجهاد والمجاهدين

¹ آل عمران: 142.

² العنكبوت: 69.

³ سورة الصف.

⁴ سورة الصف: 4.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دُلني على عملٍ يعِدُّ الجهاد؟ قال: " لا أجده ". قال: " هل تستطيع إذا خرج المُجاهد أن تدخل مسجداً فتقوم ولا تقتر، وتصوم ولا تفطر؟ " قال: " ومن يستطيع ذلك؟ " ¹

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: ما يعِدُّ الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ؟ قال: " لا تستطيعونه ". قال: فأعادوا عليه مرتين، أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: " لا تستطيعونه ". وقال في الثالثة: " مثل المُجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يقتر من صيام ولا صلاة، حتى يرجع المُجاهد في سبيل الله تعالى ". ²

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي الأعمال أفضل؟ قال: " إيمانٌ بالله ورسوله ". قال: ثم ماذا؟ قال: " الجهاد في سبيل الله ". قال: ثم ماذا؟ قال: " حجٌّ مبرورٌ ". متفق عليه. ³

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خيرٌ. فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة ". فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟ قال: " نعم. وأرجو أن تكون منهم ". متفق عليه. ⁴

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " لعدوة في سبيل الله أو روحة خيرٌ من الدنيا وما فيها ". متفق عليه. ⁵

¹ أخرجه البخاري في أول كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد والسير.

² أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله.

³ البخاري في الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل. ومسلم في الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال. واللفظ لمسلم.

⁴ البخاري في كتاب الصوم، باب الريان للصائمين. ومسلم في كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر. وهذا لفظ البخاري.

⁵ البخاري في الجهاد، باب العدو والروحة في سبيل الله. ومسلم في الإمارة، باب فضل العدو والروحة في سبيل الله.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها". متفق عليه.¹

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يذمي: اللون لون دم، والريح ريح مسك". متفق عليه.²

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر". رواه الترمذي³، وقال: حديث حسن. وأبو داود، واللفظ له، وابن ماجه.

أقوال في فضائل الجهاد والمجاهدين

جاء في كتاب: "مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق في فضائل الجهاد"⁴:

فصل: في أنه لا يعدل الجهاد شيء:

هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم، لا يستطيعون أن يعملوا عملا يعدل الجهاد، مع أنهم أولو الهمم العلية،

والنفوس الأبية، والشهامة الدينية، وأجورهم مضاعفة لصحبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم سباقون إلى

كلّ كمال، وحائزون من رتب الجهاد كلّ مقام عال.

فإذا كانوا كذلك ولا يجدون عملا يعدل الجهاد، فكيف تقرأ أعين أمثالنا من غير اجتهاد؟! وكيف تسكن نفوسنا

إلى الأعمال اليسيرة بالهمم الدنيّة الحقيرة؟! مع ما يشوبها من الرياء وعدم الإخلاص، ومن الدسائس التي لا يكاد

يرجى معها خلاص!؟.

¹ البخاري - واللفظ له - في الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله. ومسلم في الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، وباب الرباط في سبيل الله.

² البخاري - واللفظ له - في الذبائح، باب المسك. ومسلم في الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله.

³ الترمذي في الفتن، باب ما جاء في أفضل الجهاد كلمة عدل ... وأبو داود في الملاحم، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

⁴ لمؤلفه: الشهيد أحمد بن إبراهيم ابن النحاس الدمشقي الدميطي - هذبته وانتقاه الدكتور: صلاح عبد الفتاح الخالدي.

وفي قوت القلوب¹:

في تفسير قوله تعالى: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ". قال: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا " يعني نفوسهم وأموالهم، وجاهدوا عدوهم، إذ يعدهم الفقر؛ ويأمرهم بالفحشاء؛ فصابروهم؛ فغلبوه؛ فباعوا النفوس والأموال، فأعتقوا من رق الهوى، ونجوا من أهوال الحساب.

وقال: " لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا " أي لنطرقنهم إلى مكاشفات العلوم، ولنسمعنهم غرائب الفهوم، ولنوصلنهم إلى أقرب الطرق إلينا بحسن مجاهدتهم فينا، ثم ختم الأمر بقوله تعالى: " وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ " هذا مقام مشاهدة الصفات.

وفي حلية الأولياء²:

...عن الحارث المحاسبى أنه قال: من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص، زين ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة؛ لقوله تعالى: " وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ". انتهى.

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. رَبَّنَا هَبِّئْ لَنَا سُبُلَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، واجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهك الكريم، على النحو الذي تحب وترضى، يا الله ، يا رب العالمين.

¹ ج1، باب صفة القلب وتمثيله بالأنوار.

² ج4، باب الحارث بن أسد المحاسبى.

الفصل العاشر - الإخبات

وفيه: تمهيد، وتعريف الإخبات، وآيات بينات في ذكر الإخبات، ومع الإخبات في الهدى النبوي، وأقوال في الإخبات والمخبتين.

تمهيد:

جَعَلْتُ هذا الفصل خاتمة للفصول السابقة، مع أنّ القرآن الكريم لم يذكر المحبة صراحة للمخبتين كما ذكرها للمحسنين، وللصابرين، وغيرهم. وذلك لأنّي لمست أنّ المخبتين اجتمعت فيهم معظم الصفات الحسنة المحمودة المحبوبة، إنّ لم تكن كلّها.

فمن صفات المُخْبِتِينَ أهل الله وخاصته، أنهم عند ذكر الله توجل منهم القلوب وتخشع وتخاف، وإذا مستهم المصائب، تحلّوا بالصبر، وتجمّلوا بالرضا، وهم يقيمون الصلاة: (وإقامتهم الصلاة، تعني ظهور آثارها عليهم: " إنّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ "1). فَمَنْ حَسُنَتْ صَلَاتُهُ، حَسُنَتْ أَخْلَاقُهُ وَصِلَاتُهُ، وَمَنْ حَسُنَتْ

¹ العنكبوت: 45.

أخلاقه وصلاته، حسنت صلاته، ثم هم يتصدقون ويؤدون ما عليهم من صدقات (فرضا، ونفلا). ملتزمين ما يرضي الله في كل حال. فهم في خير وعلى خير، ظاهراً وباطناً، لأنفسهم ولغيرهم..

تعريف الإخبات

جاء في النكت والعيون للماوردي¹:

قول الله عز وجل: " وَبَشَّرَ الْمُخْبِتِينَ " فيه تسعة تأويلات:

أحدها: المطمئنين إلى ذكر إلههم، وهو قول مجاهد. ومنه قوله تعالى: " فَتُخَبِتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ ".

والثاني: معناه المتواضعين، وهو قول قتادة.

والثالث: الخاشعين، وهو قول الحسن.

والفرق بين التواضع والخشوع، أن التواضع في الأخلاق، والخشوع في الأبدان.

والرابع: الخائفين، وهو معنى قول يحيى بن سلام.

والخامس: المخلصين، وهو قول إبراهيم النخعي .

والسادس: الرقيقة قلوبهم، وهو قول الكلبي.

والسابع: أنهم المجتهدون في العبادة، وهو قول الكلبي ومجاهد.

والثامن: أنهم الصالحون المطمئنون، وهو مروى عن مجاهد أيضاً.

والتاسع: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، وهو قول الخليل بن أحمد.

آيات بيّنات في ذكر الإخبات

أولاً – الإيمان وعمل الصالحات والإخبات سبب للخلود في الجنّات

¹ ج: 3، ص: 116.

قال الله سبحانه: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ¹."

ثانياً – البشرى بالسعادة من الله تعالى للمخبتين

قال الله سبحانه تعالى: " فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35) ²."

ثالثاً – العلم والإيمان والإخبات

قال الله العزيز الحكيم: " وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ³."

مع الإخبات في الهدي النبوي

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُو، يَقُولُ: " رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَىٰ لِي، وَأَنْصُرْنِي عَلَيَّ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَعًا، لَكَ مُحِبًّا، إِلَيْكَ أَوَاهَا مُنِيبًا. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَتَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَأَسْأَلُ سَخِيمَةَ صَدْرِي ". رواه الترمذي ⁴، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

أقوال في الإخبات والمخبتين

¹ هود: 23.

² من سورة الحج.

³ الحج: 54.

⁴ ج: 11، باب: في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، تحت رقم 3551.

يقول سيّد قطب¹:

قوله تعالى: " فَلَهُ أَسْلِمُوا " : ليس هو إسلام الإِجبار والاضطرار، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان. " الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ "، فبمجرد ذكر اسم الله يتحرك الوجل في ضمائرهم ومشاعرهم، " وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ " فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم، " وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ " فهم يعبدون الله حق عبادته. " وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ " فهم لا يَضِنُّونَ على الله بما في أيديهم..

وفي حاشية السندي على ابن ماجه²:

في قول النبي صلى الله عليه وسلم: " اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا "، إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ اسْتِكَاةَ الْقَلْبِ، لَا الْمَسْكَنَةَ الَّتِي هِيَ نَوْعٌ مِنَ الْفَقْرِ... وَقَالَ النَّبِيُّ فِي سُنَّته: وَإِنَّمَا سَأَلَ الْمَسْكَنَةَ الَّتِي يَرْجِعُ مَعْنَاهَا إِلَى الْإِخْبَاتِ وَالتَّوَضُّعِ، وَكَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ لَا يَجْعَلَهُ مِنَ الْجَبَّارِينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ، وَأَنْ لَا يَحْشُرَهُ فِي زُمْرَةِ الْأَغْنِيَاءِ الْمُتَرْفِّهِينَ.

وفي فيض التقدير للمناوي، تعليقا على دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: " اللهم أحيني مسكينا، وتوفني مسكينا، واحشرنى في زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ ".

أي: اجمعني في جماعتهم، بمعنى: اجعلني منهم.

قال الياضي: وناهيك بهذا شرفا للمساكين، ولو قال احشر المساكين في زمرتي لكفاهم شرفا، فكيف وقد قال: واحشرنى في زمرتهم. ثم إنه لم يسأل مسكنة ترجع للقلة، بل إلى الإخبات والتواضع. انتهى.

اللهم إنا عبيدك، وأنت إلهنا وربنا ومولانا، نسألك قلباً مخبئة سليمة، ونفوساً مطمئنة، وعملاً صالحاً متقبلاً، ورضاً ليس بعده سخط، يا أرحم الراحمين.

¹ في ظلال القرآن، ج: 5، تفسير الآية: 34 من سورة الحج.

² ج: 7، باب مجالسة الفقراء.

خلاصة الباب الأوّل

إذن: هي ثماني¹ صفات يحبّها الله سبحانه وتعالى، ورسوله محمّد صلى الله عليه وسلّم. وذكر الله سبحانه في كتابه العزيز أنّه يُحبّ أصحابها والمتخلّفين بها، وأتّى النبيّ صلى الله عليه وسلّم على أصحابها والعاملين بمقتضاها.

والمحبّة علاقة متبادلة بين الله والعبيد، وهي من أصل هذا الدين، ومن أساسه الركين المتين، وليست مجرد علاقة عابرة، وكلمة هنا، وتعبير هناك.

¹ ولعلّ لعدد الثمانية معنى وميزة، فحملة العرش ثمانية: " وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ " : الحاقّة: 17. وعدد أبواب الجنة ثمانية. والذين تحلّ لهم الصدقات: ثمانية.

وقد حاولتُ في هذه الجولة مع المحسنين، ومع التوابين، ومع الصابرين، ومع المتطهرين، ومع المتقين، ومع المتوكلين، ومع المجاهدين الذين يقاتلون في سبيل الله صفا، ومع المقسطين ، أن أبرزَ السُّمُوَّ في أخلاقهم وصفاتهم التي استحقوا بموجبها تلك المنزلة العالية الرفيعة، ألا وهي المحبّة، محبّة الله مولانا سبحانه وتعالى، ومحبّة النبيّ صلى الله عليه وسلّم.

فهم اتصفوا بفضليات الأخلاق وأكملها وأحسنها.

وقد تبين لنا أنّ هذه الصفات الثماني بينها ترابط وثيق لا انفكاك عنه، وخاصّة تلك العلاقة المحكمة المترابطة بين التقوى، والإحسان، والصبر، والتوكل. هذا من ناحية...

ومن ناحية أخرى: فإنّها قد حوت واشتملت على كلّ معروف أمرَ به شرعنا الحنيف، وعلى كلّ صفة خير فيها الصلاح والهدى والرشاد.

فهيّا بنا، وبهمة عالية، نأخذ بأحسنها، ونزكّي بها أنفسنا، ونطيب بها أعمالنا، ونصلح بها قلوبنا، عسى أن نكون من أحبّاب الله المقبولين المفلحين، الذين قال الله سبحانه بحقهم: " أَوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ"¹.

الباب الثاني

صفات لا يحبّها الله تعالى ولا رسوله
صلى الله عليه وسلّم

تمهيد:

¹ المؤمنون: 61.

احتوى هذا الباب على صفات لا يُحِبُّها الله تعالى، ولا يُحِبُّها الرسول صلى الله عليه وسلّم، ذُكرت في القرآن الكريم وفي السنّة المُطَهَّرة، على أنّها مذمومة؛ ومنهيٌّ عنها، وأنّها أسباب جالبة لغضب الله سبحانه، وغضب النبي صلى الله عليه وسلّم.

ومن لوازم ذلك غضب الله سبحانه على من اتصف بمثل هذه الصفات، وذمّه لكل السُّبُل وجميع الطرق الموصلة لهذه الصفات.

وأمرنا في القرآن الكريم، وعلى لسان النبي العظيم صلى الله عليه وسلّم، باجتنابها، ونهينا عن سلوكها.

فقد ورد اللفظ القرآني: " لا يُجِبُّ "، مرتباً بالنهي وعلى وجه نفي المحبّة، في ثلاثة وعشرين موضعاً، سنتعرف على تفصيلاتها في فصول هذا الباب.¹

الفصل الأول - الكُفْرُ والشرك

وفيه: تمهيد، وتعريف الكفر والشرك، وذكر الكفر والشرك في القرآن الكريم، ومع الهدّي النبويّ في ذمّ الكفر والشرك، وأقوال في ذمّ الكفر والكافرين، والشرك والمشرّكين.

تمهيد:

¹ مع الكافرين، والكفار: 3 مرات. ومع الظالمين: 3. ومع المعتدين: 3. ومع المفسدين، والفساد: 3. ومع المختال الفخور: 3. ومع المسرفين: 2. ومع الخائنين، والخوان الأثيم: 2. ومع المستكبرين، والفرحين، والخوان الكفور، والجهر بالسوء من القول: مرّة لكل منها. وبنظرة فاحصة نجدهم سبعة أصناف، بعدد أبواب جهنم.

الحمد لله تعالى وحده، القائل في الكتاب العزيز: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"¹.

وقال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"².

وقال الله سبحانه وتعالى: " وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ"³.

إنَّ علم التوحيد (علم العقيدة الإسلامية) من أشرف العلوم، وذلك لتعلقه بالله سبحانه وتعالى وتوحيده، وأسمائه، وصفاته، وإفراده بالربوبية، والعبادة.

والإسلام والإيمان طاعة لله تعالى، وطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم. ومن الطاعة أتباع ما يحب الله تعالى، وما يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. على أن يكون ذلك مقترنا بالشهادة باللسان، وبالاعتقاد بالجنان.

وخلافاً لذلك يدخل الإنسان في دائرة الكفر وميدان الشرك، عياداً بالله سبحانه وتعالى من ذلك.

وإنَّ الكبائر بعضها أكبر من بعض، والكفر والشرك بالله تعالى أكبر الكبائر. وقد جاء التحذير منهما، والتنبيه إلى خطرهما في محكم الكتاب العزيز، وفي نصوص السنة الشريفة المطهرة. فالله سبحانه وتعالى واحدٌ في عليائه، قاهرٌ فوق عبادِهِ، فعَّالٌ لما يريد.

وكما أنَّ هناك إسلام، وإيمان، وإحسان، فهناك كفر، وشرك. والشرك أخطر درجات الكفر، وأشدَّ أنواعه.

تعريف الكفر وتعريف الشرك

جاء في أساس البلاغة:

¹ المائدة: 3.

² آل عمران: 85.

³ فاطر: 36.

ك ف ر: كفر الشيء وكفره: غطاه. يقال: كفر السحاب السماء... وكفر الليل بظلامه، والفلاح الحَبَّ، ومنه قيل للزرّاع: الكفار. وتكفر بثوبه: اشتمل به.

وفي مختار الصحاح:

وكُلُّ شيء غَطَى شيئاً فقد كَفَرِه. قال ابن السكّيت ومنه سُمِّي الكافر لأنَّهُ يَسْتُرُ نِعَمَ الله عليه.

وفي العين للخليل بن أحمد:

كَفَرَ: الكُفْرُ: نقيض الإيمان. ويقال لأهل دار الحرب: قد كَفَرُوا، أي: عَصَوْا وامتنعوا.

والكُفْرُ: نقيض الشكر. كَفَرَ النعمة، أي: لم يشكرها.

وفي المحكم والمحيط الأعظم:

ورجل كافر: جاحدٌ لأنعم الله، مُسْتَقَّ من السّتر. وقيل: لأنه مُعْطَى على قلبه.

وجاء في مختار الصحاح:

ش ر ك: جمع الشَّرِكِ شُرَكَاءَ وأشْرَاكٌ. والشَّرِكُ أيضاً الكُفْرُ. وقد أشْرَكَ بالله فهو مُشْرِكٌ.

وفي المحكم والمحيط الأعظم:

أشْرَكَ بالله: جعل له شريكاً في ملكه.

ونقرأ في معجم لغة الفقهاء لمحمد رواس قلنجي:

الشرك: بكسر أوله وسكون ثانيه، مصدر شرك وأشرك، اعتقاد تعدد الآلهة.

الشرك الأعظم: الشرك في الألوهية، أو: الشرك في الربوبية.

الشرك الأصغر: مراعاة غير الله في التصرفات، كالرياء ونحوه.

وجاء في الفروق اللغوية:

الفرق بين الكفر والشرك: أن الكفرَ خصالٌ كثيرة، وكل خصلة منها تضاد خصلة من الإيمان. لأنَّ العبد إذا فعل خصلة من الكفر فقد ضيع خصلة من الإيمان.

والشرك خصلة واحدة وهو إيجاد إلهية مع الله، أو دون الله. واشتقاقه ينبئ عن هذا المعنى. ثم كثرَ حتى قيل لكل كُفْرٍ شِرْكٌ على وجه التعظيم له، والمبالغة في صفته.

وأصله كفر النعمة، ونقيضه الشكر، ونقيض الكفر بالله: الإيمان.

ذكر الكفر والشرك في القرآن الكريم

أتكلم هنا في هذه الفقرة وما بعدها من هذا الفصل عن الكفر الذي هو نقيض الإيمان، وعن الشرك الأعظم الذي يُخرج صاحبه من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر.

وردت كلمتا: "كفر" و:"شرك" ومشتقاتهما في القرآن العظيم في مواضع كثيرة جدًا، جاءت على سبيل الذم والتحذير من الوقوع في الكفر أو الشرك.

ومن صور ذكر القرآن الكريم للكفر والشرك:

أولاً – على سبيل التحذير والنهي:

1 – إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ. فَمَنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ فَلَا غُفْرَانَ لَهُ.

– قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا "

¹ النساء: 48.

– وقال سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ".¹

– وقال سبحانه وتعالى: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ".²

2 – وقد نهينا عن الكفر والشرك:

– قال الله سبحانه وتعالى: " فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ".³

– وقال سبحانه وتعالى: " وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ".⁴

3 – الشرك والكفر بابان للظلم:

– قال الله سبحانه وتعالى: " فَبِئْسَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ".⁵

– وقال سبحانه وتعالى: " وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ".⁶

4 – الشرك والكفر محبطان للعمل:

– قال الله سبحانه وتعالى: " وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ".⁷

¹ النساء: 116.

² آل عمران: 90.

³ البقرة: 152.

⁴ النساء: 36.

⁵ الفرة: 258.

⁶ لقمان: 13.

⁷ الزمر: 65.

– وقال سبحانه وتعالى: " ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ".¹

– وقال سبحانه وتعالى: " وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ".²

5 – النفاق والشرك والكفر، أسباب جالبة لعذاب الله، ولعنة الله، والطرده من رحمته.

فقد قرن القرآن المشركين والكافرين بالمنافقين، وأثابهم نفس الجزاء، وذلك في غير موضع:

– قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ
جَمِيعًا ".³

– وقال سبحانه وتعالى: " وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ
نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُقِيمٌ ".⁴

– وقال سبحانه وتعالى: " لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ".⁵

– وقال سبحانه وتعالى: " وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ".⁶

¹ الأنعام: 88.

² المائدة: 5.

³ النساء: 140.

⁴ التوبة: 68.

⁵ الأحزاب: 73.

⁶ الفتح: 6.

— وقال سبحانه وتعالى: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ".¹

ثانياً — عاقبة الكفر والشرك:

مَنْ تَخَلَّقَ بِمَا لَا يُرْضِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ فَقَدَ وَخَسِرَ مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَرَحْمَةَ اللَّهِ، وَرِضَا اللَّهِ. واستحق غضب الله عليه. وَمَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

وهل هناك جزاء أشد من هذا الجزاء؟! وهل هناك خسارة أكبر من تلك الخسارة؟.

ومن صور عاقبة الكفر والشرك:

1 — من تعاطى الربا:

— قال الله سبحانه وتعالى: " يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِي الصَّدَقَاتِ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ".²

ونلاحظ هنا، اقتران " كَفَّارٍ " بـ " أَثِيمٍ " بقوله تعالى: " يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ". فالمتعاطي للربا كَفَّارٍ أَثِيمٍ، وعده الله القويُّ العزيز بالحرب، وبالمحق. والله لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ.

2 — الإيمان والطاعات، سبب لمحبة الله سبحانه. وبالمقابل فإنّ التولي والإعراض عن طاعة الله ورسوله كفر، وسبب لغضب الله، ونزع المحبة عن أهلها:

— قال الله سبحانه وتعالى: " قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ".³

¹ البقرة: 161.

² البقرة: 276.

³ آل عمران: 32.

— وقال الله سبحانه وتعالى: " مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45) ".¹ فالله سبحانه وتعالى لا يُحِبُّ الكافرين.

— وقال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ".²

فالله سبحانه وتعالى لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ. نعوذ بالله مولانا من الكفر وأهله.

مع الهدي النبوي في ذم الكفر والشرك

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: " الشِّرْكَ بِاللَّهِ، وَالسُّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ النِّزْحِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ ". متفق عليه، واللفظ للبخاري.³

وعن أَبِي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: " أَلَا أَنْبَأُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟ " — ثَلَاثًا —: " الشِّرْكَ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَوْ قَوْلُ الزُّورِ ". وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَكِنًا، فَجَلَسَ. فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ. متفق عليه، واللفظ لمسلم.⁴

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لغيرِ أبيه، وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ. وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلَيْتَبَوَّأُ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ. وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوٌّ لِلَّهِ — وَلَيْسَ كَذَلِكَ — إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ ". متفق عليه.⁵ وهذا لفظ رواية مسلم.⁶

¹ من سورة الروم.

² الحج: 38.

³ البخاري: كتاب الوصايا، باب الحدود والمحاربيين. ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أكبر الكبائر.

⁴ البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور. ومسلم: في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

⁵ البخاري: كتاب المناقب. ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال من رغب عن أبيه.

⁶ من المناسب الاطلاع على شرح هذا الحديث، في شرح النووي على مسلم، ج:1، رقم الحديث: 91.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقَكَ" قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ". قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَنْ تَزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ" متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.¹

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: "الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ" شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ. إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لِقَمَانٍ لِأَبْنِهِ: "يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" متفق عليه.²

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: فَمَا أَرَدْتَ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ، أَحْسِيئُهُ قَالَ: وَلَا أَذْخِلُكَ النَّارَ، فَأَبْيَتَ لِأَبِي الشِّرْكَ" أخرجه البخاري، ومسلم، واللفظ له.³

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفُسُوقِ، وَلَا يَرْمِيهِ بِالْكَفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَهُ كَذَلِكَ".⁴

وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله: عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: جَاءَهُ ابْنُهُ عَامِرٌ، فَقَالَ: أَيُّ بُنَيٍّ! أَمِ الْفِتْنَةِ تَأْمُرُنِي أَنْ أَكُونَ رَأْسًا؟ لَا وَاللَّهِ، حَتَّى أُعْطِيَ سَيْفًا إِنْ ضَرَبْتُ بِهِ مُؤْمِنًا نَبَأَ عَنْهُ، وَإِنْ ضَرَبْتُ بِهِ كَافِرًا قَتَلَهُ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ التَّقِيَّ".⁵

¹ البخاري: باب قتل الولد خشية أن يأكل معه. ومسلم: باب كون الشرك أقيح الذنوب.

² البخاري: باب ما جاء في المتأولين. ومسلم، واللفظ له: باب صدق الإيمان وإخلاصه.

³ البخاري: باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، وباب صفة الجنة والنار. ومسلم: باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض.

⁴ رواه البخاري في الأدب: باب ما ينهى من السباب واللعن. ورواه أحمد: باب حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

⁵ مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أُغْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ ". رواه مسلم، واللفظ له،¹ وابن ماجه، والطبراني، والطبري، والبيهقي، وابن خزيمة.

أقوال في ذم الكفر والكافرين، وذم الشرك والمشركين

جاء في تفسير ابن كثير²:

وقوله تعالى: " وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ " أي: لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل.

ويقول سيد قطب عند قوله تعالى³: " يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ".

وهذا التعقيب هنا قاطع في اعتبار من يُصِرُّون على التعامل الربوي — بعد تحريمه — من الكفار الآثمين، الذين لا يحبهم الله. وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة: لا إله إلا الله. محمد رسول الله.. فالإسلام ليس كلمة باللسان؛ إنما هو نظام حياة ومنهج عمل؛ وإنكار جزء منه كإنكار الكل.. وليس في حرمة الربا شبهة؛ وليس في اعتباره حلالاً وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم.. والعياذ بالله..

وفي تفسير القشيري⁴:

¹ مسلم: الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله.
² ج: 1. عند تفسير قوله تعالى: " وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ".
³ في ظلال القرآن.
⁴ ج: 1، تفسير الآية: 32 من آل عمران.

قول الله جلّ ذكره: " قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ".

أمرهم بالطاعة، ثم قال: " فَإِن تَوَلَّوْا " أي قَصَرُوا فِي الطاعة بأن خالفوا، ثم قال: " فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ". لم يَقُلْ العاصين، بل قال الكافرين. ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين وإن كانوا عَصَاة. انتهى.

وجاء في كتاب الكبائر للذهبي¹:

فأكبر الكبائر: الشرك بالله تعالى، وهو نوعان:

أحدهما: أن يجعل لله نداً ويعبد غيره... وهذا هو الشرك الأكبر الذي ذكره الله عز وجل. قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ". فمن أشرك بالله، ثم مات مشركاً، فهو من أصحاب النار قطعاً. كما أن مَنْ آمَنَ بالله، ومات مؤمناً، فهو من أصحاب الجنة، وإن عُدَّ بالنار.

والنوع الثاني من الشرك: الرياء بالأعمال، كما قال تعالى: " فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ". انتهى.

وجاء في " العين " للخليل بن أحمد²:

والكُفْرُ أربعة أنحاء:

— كُفْرُ الجحود مع معرفة القلب، كقوله عز وجل: " ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ".

— وكُفْرُ المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى بلسانه.

— وكُفْرُ النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر.

¹ ج: 1، باب الشرك بالله.

² ج: 1، باب الكاف والراء والباء معهما.

— وكُفِرَ الْإِنكَارَ: وهو كُفِرَ القلب واللسان.

وحول قول الله تبارك وتعالى: " إِنْ لَّا يَغْفِرُ لَنَا إِيَّاكَ يَا رَبِّ إِنَّ اللَّهَ لَآ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا "، يقول سيّد قطب في موسوعته في ظلال القرآن¹:

والشرك بالله يتحقق باتخاذ آلهة مع الله اتخاذاً صريحاً على طريقة الجاهلية العربية وغيرها من الجاهليات القديمة، كما يتحقق بعدم إفراد الله بخصائص الألوهية؛ والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص.

ويقول سيّد قطب²:

إن الإسلام هو طاعة الله والرسول. وإن الطريق إلى الله هو طريق الاتّباع للرسول. وليس مجرد الاعتقاد بالقلب، ولا الشهادة باللسان: " قُلْ: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .. " " قُلْ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَآ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ". فإما طاعة واتّباع يحبه الله، وإما كفر يكرهه الله.. وهذا هو مفرق الطريق الواضح المبين..

وأختم هذه الفقرة بهذه البشارة النبويّة:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُوجِبَاتُ؟ فَقَالَ: " مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ " ³.

وفي شرح النووي على مسلم: وأمّا قوله: " ما المُوجِبَاتُ؟ " فَمَعْنَاهُ الْخَصْلَةُ الْمُوجِبَةُ لِلْجَنَّةِ، وَالْخَصْلَةُ الْمُوجِبَةُ لِلنَّارِ. انتهى.

¹ ج: 2، تفسير الآية: 116 من سورة النساء.

² في ظلال القرآن، ج: 1، تفسير الآيتين: 31 و 32 من آل عمران.

³ كتاب الإيمان، باب من مات لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة.

" اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ ".¹

الفصل الثاني - الظلم

وفيه: تمهيد، وتعريف الظلم، وذكر الظلم والظالمين في القرآن الكريم، وذكر الظلم والظالمين في السنة المطهرة، وأقوال في ذمّ الظلم والظالمين.

تمهيد:

الظلم سببه نقصٌ عند الظالم، وهو انتقاص لحق المظلوم.

وقد نزه الله سبحانه وتعالى نفسه عن الظلم. قال سبحانه وتعالى: " وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ".²

والله لا يحب الظالمين، فحاشاً أن يظلمَ وهو لا يحب الظالمين.

وجاء في أدب الدين والدنيا³:

— قِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكْمِ: وَيَلُّ لِلظَّالِمِ مِنْ يَوْمِ الْمَظَالِمِ.

— وَقَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ: مَنْ جَارَ حُكْمُهُ، أَهْلَكَهُ ظُلْمُهُ.

— وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيِّئِلَىٰ بِأَظْلَمِ

تعريف الظلم

¹ رواه الإمام أحمد، باب حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

² الكهف: 49.

³ ج 1، الفصل السابع في المروءة.

في كتاب العين: والظُّمُّ: أخذك حقَّ غيرك.

وفي التعريفات: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. وفي الشريعة: عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور. وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد.

ذكر الظلم والظالمين في القرآن الكريم

أولاً – قد يذكر الظلم ويراد به الشرك أو الكفر.

– قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ"¹

– قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"²

ثانياً – الظلم سبب للهلاك في الدنيا.

– قال الله سبحانه وتعالى: " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ"³

– قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ

"⁴

ثالثاً – إنه لا يفلح الظالمون، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير.

– قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"¹

¹ العنكبوت: 68.

² لقمان: 13.

³ هود: 102.

⁴ القصص: 59.

— قال الله سبحانه وتعالى: " وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ"².

رابعاً — الله لا يهدي القوم الظالمين.

— قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"³.

— وقال الله سبحانه: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"⁴.

نلاحظ هنا أمرين اثنين:

أولهما: جاء اللفظ القرآني: " الله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "، في عشر آيات، ركزت على ارتباط الظلم بالكذب، والاستكبار، واتباع الهوى، والكفر، والنفاق، وتولي أعداء الله، والتكذيب بآيات الله، وسلوك طريق غير طريق المؤمنين المتقين.

ثانيهما: وجاء اللفظ القرآني: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ " في تسعة مواضع، على النحو التالي:

1 — مرّة مع السعي في خراب مساجد الله:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا"⁵.

¹ الأنعام: 21.

² الشورى: 8.

³ القصص: 50.

⁴ الصف: 7.

⁵ البقرة: 114.

2 – ومرة في كتمان الشهادة:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ".¹

3 – ومرتين في الإعراض عن آيات الله:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ".²

وقال سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا "

3.

4 – وخمس مرات مع افتراء الكذب على الله. فجاء قول الله سبحانه وتعالى في أربعة مواضع هكذا:

" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ".⁴

وفي الموضع الخامس، قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ "

الْكَذِبَ ".⁵

فهذه الفئة المجرمة الهالكة الخاسرة، كانت هي الأظلم، بسبب ارتكابها لبعض هذه المهلكات:

السعي في خراب مساجد الله سبحانه، والصدّ عن سبيله، وكتمان شهادة الله، والإعراض عن آياته، وافتراء

الكذب عليه سبحانه وتعالى.

خامساً – عاقبة الظالمين:

أ – في الدنيا:

¹ البقرة: 140.

² الكهف: 57.

³ السجدة: 22.

⁴ الأنعام: 21، و: 93، و هود: 18، و العنكبوت: 68.

⁵ الصف: 7.

1 – الله وليّ المتقين. والظالمين بعضهم أولياء بعض.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ " ¹.

2 – الله لا يحب الظالمين، حيث جاء ذلك في آيات ثلاث:

– قال الله سبحانه وتعالى: " وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " ².

– وقال سبحانه وتعالى: " وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " ³.

– وقال سبحانه: " وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " ⁴.

ركزت الآيات الثلاث، على أنه مَنْ آمَن وعمل الصالحات، وجاهد في سبيل الله، وعفا عن مقدرة، وأصلح ما بينه وبين الله، وما بينه وبين الناس، فليس هو من الظالمين.

وَمَنْ عمل عكس ذلك فهو من الظالمين، والله لا يُحِبُّ الظالمين.

ب – في الآخرة:

قال الله سبحانه وتعالى: " فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " ¹.

¹ الجاثية: 19.

² آل عمران: 57.

³ آل عمران: 140.

⁴ الشورى: 40.

وقال سبحانه وتعالى: " يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ . وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " .²

سادساً – الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحداً أبداً.

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْسِكْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا " .³

وقال سبحانه وتعالى: " وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا . وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا " .⁴

ذكر الظلم والظالمين في السنة المطهرة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا " .
فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا! أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا؟! كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: " تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ " . رواه البخاري، واللفظ له، ومسلم.⁵

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: " اتَّقُوا الظُّلْمَ ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . رواه مسلم.⁶

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه حينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: "... وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ " . متفق عليه⁷، واللفظ للبخاري. وفي رواية مسلم "... وَأَتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ " .

¹ الأنعام: 135.

² الإنسان: 31.

³ النساء: 40.

⁴ الكهف: 49.

⁵ البخاري في المظالم، باب عن أخاك ظالماً أو مظلوماً. ومسلم: باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً.

⁶ رواه مسلم في البر، باب تحريم الظلم.

⁷ البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة. ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله...

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.. " الحديث.¹

وعن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُمَا، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَكَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَكَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَكَ كَذَا؟ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: " هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ". رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، واللفظ له.²

قال في شرح النووي على مسلم: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يُدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَقَرُّهُ بِذُنُوبِهِ " إِلَى آخِرِهِ. أَمَّا (كَنَفَهُ) فَبِنُونٍ مَفْتُوحَةٍ، وَهُوَ: سِتْرُهُ وَعَقُوه. وَالْمُرَادُ بِالذُّنُوبِ هُنَا: ذُنُوبَ كَرَامَةٍ وَإِحْسَانٍ، لَا ذُنُوبَ مَسَافَةٍ.

أقوال في ندم الظلم والظالمين:

يقول سيّد قطب بمناسبة الحديث عن هذه الآية³: " إِنَّ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ": والظلم كثيراً ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك. بوصفه أظلم الظلم وأقبحه. وفي القرآن: " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ".

¹ رواه مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم.
² البخاري في التفسير، تفسير سورة هود، باب قوله تعالى: " أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ " ، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله. وأحمد في مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
³ في ظلال القرآن، تفسير الآية 140 سورة آل عمران.

والتعبير بأن الله لا يحب الظالمين يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين. وهذه الإثارة في معرض الحديث عن الجهاد والاستشهاد لها مناسبتها الحاضرة. فالمؤمن إنما يبذل نفسه في مكافحة ما يكرهه الله ومن يكرهه. وهذا هو مقام الاستشهاد وفي هذا تكون الشهادة ; ومن هؤلاء يتخذ الله الشهداء... انتهى.

وجاء في المنهيات للحكيم الترمذي¹:

فإن الله وضع العدل بين خلقه، ثم لم يرض من الظلم بقليل، ولا كثير، ولا امتقال ذرة، ولا حبة خردل، وليس بتارك أحدا من خلقه يوم القيامة حتى يقضي له.

وفي الكبائر للذهبي²:

والظلم على ثلاثة أقسام:

— أحدها: أكل المال بالباطل.

— وثانيها: ظلم العباد بالقتل والضرب والكسر والجراح.

— وثالثها: ظلم العباد بالشتم واللعن والسب والقذف.

وفي إحياء علوم الدين³:

وليس الظلم في إعطاء غير المستحق، بأقل من الظلم في منع المستحق.

وفي إحياء علوم الدين، أيضاً⁴:

¹ ج: 1، باب التخنيث ومخالطة المخنث.

² ج: 1، باب السرقة.

³ ج: 1، بيان علامات علماء الآخرة.

⁴ ج: 1، باب في ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة.

وأنه سبحانه وتعالى، لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله، على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم في أفعاله، عادل في أقضيته، لا يقاس عدله بعدل العباد. إذ العبد يُتَصَوَّر منه الظلم بتصرفه في ملك غيره، ولا يتصور الظلم من الله تعالى، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً...

وفي الأخلاق والسير لابن حزم¹:

العدل حصنٌ يلجأ إليه كل خائف، وذلك أنك ترى الظالمَ وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذٍ وذمه، ولا ترى أحداً يذمُّ العدلَ. فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن. انتهى.

وبمناسبة الحديث عن قول الله سبحانه وتعالى: " لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ . وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا "،² سأسوق بعض الأقوال التي جاءت في بعض التفاسير:

— في تفسير ابن كثير:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: " لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ "، يقول: لا يحب الله أن يدعو أحداً على أحدٍ، إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: " إِلَّا مَنْ ظَلِمَ ". وإن صبر فهو خير له.

وعن أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنه وعن أبيها، قالت: سُرِق لها شيء، فجعلت تدعو عليه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تُسَبِّخِي عنه "،³

¹ ج: 1، باب أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها.

² النساء: 148.

³ رواه أحمد، باب حديث السيدة عائشة رضي الله عنها. وأبو داود، ج: 4، باب الدعاء. (ومعنى " لا تُسَبِّخِي عنه "، أي: لا تُخففي عنه العقوبة، وتتنقصي أجرك في الآخرة بدعائك عليه).

— وفي النكت والعيون: قوله عز وجل: " لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ "، فيه أربعة تأويلات:

أحدها: يعني إلا أن يكون مظلوماً، فيدعو على من ظلمه. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: إلا أن يكون مظلوماً، فيجهر بظلم من ظلمه. وهذا قول مجاهد.

والثالث: إلا من ظلم فانتصر من ظالمه. وهذا قول الحسن، والسدي .

والرابع: إلا أن يكون ضيفاً، فينزل على رجل فلا يحسن ضيافته، فلا بأس أن يجهر بذمه. وهذه رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد .

— وفي تفسير الجلالين:

" لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ " من أحد، أي: يعاقبه عليه، " إِلَّا مَنْ ظَلِمَ "، فلا يؤاخذ بالجهر به، بأن يخبر عن ظلم ظالمه ويدعو عليه. " وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً " لما يقال " عَلِيماً " بما يفعل .

— ويقول سيد قطب¹:

إنّ المجتمع شديد الحساسية، وفي حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية. ورب كلمة عابرة لا يحسب قائلها حساباً لما وراءها؛ ورب شائعة عابرة لم يرد قائلها بها إلا فرداً من الناس . . . ولكن هذه وتلك تترك في نفسية المجتمع وفي أخلاقه وفي تقاليدته وفي جوه آثاراً مدمرة؛ وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة.

والجهر بالسوء من القول — في أية صورة من صوره — سهلٌ على اللسان ما لم يكن هناك تخرج في الضمير وتقوى لله. وشيوع هذا السوء كثيراً ما يترك آثاراً عميقة في ضمير المجتمع . . . كثيراً ما يدمر الثقة المتبادلة في هذا المجتمع فيخيل إلى الناس أن الشر قد صار غالباً.

¹ في ظلال القرآن.

وكثيراً ما يُزين لمن في نفوسهم استعداد كامن للسوء، ولكنهم يتحرجون منه، أن يفعلوه لأن السوء قد أصبح ديدن المجتمع الشائع فيه، فلا تحرج إذن ولا تقيه، وهم ليسوا بأول من يفعل! وكثيراً ما يذهب ببشاعة السوء بطول الألفة. فالإنسان يستقبح السوء أول مرة بشدة؛ حتى إذا تكرر وقوعه أو تكرر ذكره، خفت حدة استقباحه والاشمئزاز منه؛ وسهل على النفوس أن تسمع – بل أن ترى – ولا تثور للتغيير على المنكر.

إن الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر اتهامات فردية – سباً وقذفاً – وينتهي انحلالاً اجتماعياً؛ وفوضى أخلاقية؛ تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات؛ وتتعدم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض؛ وقد شاعت الاتهامات؛ ولاكتها الألسنة بلا تحرج .

لذلك كله كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء. وأن يقتصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم؛ في حدود ما وقع عليه منه من الظلم!

لينتصف المجتمع للمظلوم؛ وليضرب على يد الظالم؛ وليخشى الظالم عاقبة فعله، فيتردد في تكراره . . . والجهر بالسوء عندئذ يكون محدد المصدر – من الشخص الذي وقع عليه الظلم – محدد السبب – فهو الظلم المعين الذي يصفه المظلوم – موجهاً إلى شخص بذاته هو الذي وقع منه الظلم . . . عندئذ يكون الخير الذي يتحقق بهذا الجهر مبرراً له؛ ويكون تحقيق العدل والنصفة هو الهدف لا مطلق التشهير.

إن الإسلام يحمي سمعة الناس – ما لم يظلموا – فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية؛ وأذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظالمه؛ وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء .

" وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا "، ليربط الأمر في النهاية بالله، بعد ما ربطه في البداية بحب الله وكرمه... وليشعر القلب البشري أن مرد تقدير النية والباعث، وتقدير القول والاتهام، لله، السميع لما يقال، العليم بما وراءه مما تنطوي عليه الصدور.

"اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ".¹

الفصل الثالث - الاعتداء والعُدوان

وفيه: تمهيد، وتعريف العدوان، وذكر الاعتداء والعدوان في القرآن الكريم، النهي عن الاعتداء والعدوان في السنة الشريفة، وأقوال في النهي عن الاعتداء والعدوان.

تمهيد:

الاعتداء والعُدوان منهيّ عنه في شرعنا القويم، في كتاب ربنا العزيز الحكيم، وعلى لسان نبيّنا محمد عليه أزكى الصلوات وكامل التسليم... نهى صريح وجازم عن الاعتداء على النفس، وعلى الغير، سواء كان هذا الغير فردا أو جماعة...

جاء في حلية الأولياء²: قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: أنفع الذخائر التقوى، وأضرها العدوان.

تعريف العُدوان

¹ رواه أحمد، وابن ماجه، وأبو داود، واللفظ له، باب ما يقول إذا خرج من بيته.

² ج 4، الباب: الإمام الشافعي.

جاء في المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده:

عَدَا عَدُوًّا: ظَلَمَ، وَجَارَ.

وقوله تعالى: " إِنْهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ "، المعتدون: الْمُجَاوِزُونَ مَا أُمِرُوا بِهِ.

والعَدْوَى: الفسادُ.

وفي تاج العروس: قيل: العدوان: أسوأ الاعتداء، في: قوة، أو فعل، أو حال.

ذكر الاعتداء والعدوان في القرآن الكريم

أولاً – النهي عن العدوان، مهما كان السبب لذلك.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا. وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ " ¹.

ثانياً – عاقبة العدوان والمعتدين.

جاء اللفظ القرآني: " لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " في آيات ثلاث، تطرقت للنهي عن العدوان في مواضع

ثلاث:

1 – قال الله تبارك وتعالى: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ .

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " ².

¹ المائدة: 2.

² البقرة: 190.

فقد نهى الله تعالى الفئة المؤمنة عن العدوان، ولو كان ذلك في مواجهة الأعداء، وفي ساحات القتال.

2 – وقال الله سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ . وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " ¹.

وهنا الأمر للفئة المؤمنة بأن تلتزم بأوامر الله تعالى، فهو سبحانه وحده أحلّ الحلال، وهو الذي حرّم الحرام.

فَمَنْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، أَوْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، فَقَدْ اعْتَدَى، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.

3 – وقال سبحانه وتعالى: " ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " ².

فقد نهينا عن الاعتداء، ولو كان في الدعاء. وصورته أن يرفع صوته بما يؤذي الآخرين، أو يجاوز أحكام الدعاء وآدابه.

فإنه سبحانه وتعالى نهانا عن الاعتداء والعدوان، مهما كانت الظروف، ومهما كانت الأسباب. وأخبرنا سبحانه أنه لا يحب المعتدين. فلنجنب الاعتداء، ولا نسلك طريق المعتدين.

النهي عن الاعتداء والعدوان في السنة الشريفة

هذه طائفة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ووصايا أصحابه، تكشف عن طبيعة هذا الدين ورحمته، وعن الآداب، ومكارم الأخلاق، التي لم تعرفها البشرية إلا على يد المسلمين:

1 – في النهي عن الاعتداء، حتى في حال المواجهة مع الأعداء:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: وَجِدْتُ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ. أخرج الشيخان ³.

¹ المائدة: 87.

² الأعراف: 55.

³ البخاري: باب قتل الصبيان في الحرب، وباب قتل النساء في الحرب. ومسلم: باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب.

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ النَّهْبِ وَالْمُتْلَةِ. أخرجہ البخاري.¹

وعن بريدة رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: "اغزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَاتَلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ. اغزُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدُوا، وَلَا تَمُتُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيًّا..." الحديث...أخرجہ مسلم.²

2 – في النهي عن الاعتداء على غيره من المسلمين:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْدُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرِضُهُ ". رواه مسلم.³

3 – في النهي عن اعتداء الإنسان على نفسه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا. وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا. وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ". رواه مسلم.⁴

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةِ سِوَى الْإِسْلَامِ كَانِيًا مُتَعَمِّدًا فَهُوَ كَمَا قَالَ. وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَبَهُ اللَّهُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ". رواه مسلم.⁵

¹ باب النهي بغير إذن صاحبه.

² باب تأمير الإمام الأمراء...

³ في البر والصلة، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس.

⁴ باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.

⁵ باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.

أقوال في النهي عن الاعتداء والعدوان

أولاً – جاء حول قوله تعالى: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ . وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ."

1 – في حلية الأولياء¹:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يحيى بن يحيى، أما بعد، فإني ذكرت آية من كتاب الله: " وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . " وإن من العدوان قتل النساء والصبيان، فلا تقتلن امرأة ولا صبياً، ولا تقتلن أسيراً، ولا تطلبن هارباً، ولا تجهزن على جريح إن شاء الله، والسلام. انتهى.

2 – ويقول سيد قطب²:

وتبدأ الآيات بأمر المسلمين بقتال هؤلاء الذين قاتلوهم وما يزلون يقاتلونهم، وبقتال من يقاتلهم في أي وقت وفي أي مكان، ولكن دون اعتداء:

" وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ . وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ."

وفي أول آية من آيات القتال نجد التحديد الحاسم لهدف القتال، والراية التي تخاض تحتها المعركة في وضوح وجلاء: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ."

إنه القتال لله، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة. القتال في سبيل الله. لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغنم والمكاسب؛ ولا في سبيل الأسواق والخامات؛ ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس..

¹ ج: 2، باب عمر بن عبد العزيز.

² في ظلال القرآن، ج: 1، تفسير الآية: 190 من سورة البقرة.

" وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ". والعدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الأمنيين المسالمين الذين لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية ولا على الجماعة المسلمة، كالنساء والأطفال والشيوخ والعباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة ودين.. كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام، ووضع بها حداً للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة والحاضرة على السواء.. تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام، وتأبأها تقوى الإسلام. انتهى.

فماذا نقول اليوم، ونحن نرى ونسمع ما يفعله أذعياء الديموقراطيات الزائفة، الذين يهلكون الحرث والنسل، ويعيثون في الأرض فساداً وإفساداً، فلم يسلم منهم أحد من المخلوقات، فَقَتَلُوا النُّفُوسَ، وَأَزْهَقُوا كُلَّ أَنْوَاعِ الْحَيَاةِ، واعتدوا على الحرمات، وَبَدَّلُوا أَمْنَ النَّاسِ خَوْفًا وَرُعبًا، وشبَّعهم جوعاً وحاجةً، واجتماعهم تفرقاً وعداوةً، وجعلوا حياتهم جحيماً لا تطاق... وكل ذلك باسم السلام، وتحت شعار مكافحة الإرهاب، ومحاربة الإرهابيين.. وإنما هي حرب على الإسلام والمسلمين، بل هي حربٌ على كلِّ حُرٍّ أبِي... فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثانياً – جاء حول قول الله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ . وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ":

– في تفسير القرطبي:

قوله تعالى: " وَلَا تَعْتَدُوا " قيل: المعنى لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله. فالنهيان، على هذا، تضمننا الطرفين، أي لا تشددوا فتحرموا حلالاً، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً، قاله الحسن البصري. انتهى.

ثالثاً – جاء في بعض التفاسير، حول قول الله سبحانه: " ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ":

1 – في تفسير الطبري:

قوله تعالى: " إِنَّهُ لَا يُجِبُّ الْمُعْتَدِينَ "، فإنّ معناه: إنّ ربكم لا يحب من اعتدى فتجاوز حدّه الذي حدّه لعباده في دعائه ومسألته ربّه، ورفع صوته فوق الحد الذي حدّ لهم في دعائهم إياه، ومسألتهم، وفي غير ذلك من الأمور...

2 – وفي ظلال القرآن، يقول سيّد قطب:

إنه التوجيه في أنسب حالة نفسية سالحة، إلى الدعاء والإنابة.. تضرعاً وتذلاً؛ وخفية لا صياحاً وتصديّة! فالتضرع الخفي أنسب وأليق بجلال الله وبقرب الصلة بين العبد ومولاه.

وعن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه، قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا. إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ". متفقٌ عَلَيْهِ. ¹ (ارْبِعُوا: أَي: ارْفُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ).

فهذا الحسّ الإيماني بجلال الله وقربه معاً، هو الذي يؤكد المنهج القرآني هنا ويقرره في صورته الحركية الواقعية عند الدعاء. ذلك أن الذي يستشعر جلاله فعلاً يستحي من الصياح في دعائه؛ والذي يستشعر قرب الله حقاً لا يجد ما يدعو إلى هذا الصياح!

والنفس التي تتضرع وتخضع خفيةً للقريب المجيب، لا تعتدي كذلك ولا تُفسد في الأرض بعد إصلاحها.. فبين الانفعاليين اتصال داخلي وثيق في تكوين النفس والمشاعر. والمنهج القرآني يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس.

رابعاً – جاء حول قول الله سبحانه: " فَمَنْ اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ " ².

– في غريب الحديث لا بن قتيبة: ³

فالعُدوان الأول ظلم، والثاني قِصاص. والقصاص لا يكون ظلماً، وإن خرج لفظه كلفظ الأول.

¹ البخاري في الجهاد، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير. ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استحضار خفض الصوت بالذكر.

² البقرة: 194.

³ ج: 1، ص: 82.

الفصل الرابع - الفساد والإفساد

وفيه: تمهيد، وتعريف الفساد والإفساد، وذمّ الفساد والإفساد في رحاب الكتاب العزيز، وذمّ الفساد والإفساد في رحاب السنّة النبويّة، وأقوال في ذمّ في الفساد والإفساد.

تمهيد:

الفساد والإفساد من طبيعة الشياطين وأتباعهم من المنافقين، والكفرة، والمشركين... وأيّ فساد أكبر من إفساد عقائد الناس، وأيّ فساد أعظم من الصدّ عن شرع الله تعالى.

وقد أخبرنا الله سبحانه أنّه لا يُحبّ المُفسدين، ونهى، وهو الخالق الحكيم، عن الفساد، نهى عن الفساد بكلّ أشكاله وألوانه، ونهى عن الفساد في كلّ زمان ومكان، وحذّرنا جميعاً من سلوك سبيل المفسدين: " وَ أَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ"¹.

وفي فتح القدير:² وقوله تعالى: " وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ "، يشمل كل نوع من أنواعه، من غير فرق بين ما فيه فساد الدين، وما فيه فساد الدنيا.

تعريف الفساد والإفساد

في مختار الصحاح: ف س د: فَسَدَ الشَّيْءُ يَفْسُدُ بِالضَّمِّ فَسَادًا، وَالْمَفْسُودَةُ ضِدُّ الْمَصْلُوحَةِ.

وفي غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: وَالْبِصْلَاحُ ضِدُّ الْبِإْفْسَادِ.

قَالَ فِي الْقَامُوسِ: الصَّلَاحُ ضِدُّ الْفُسَادِ، وَأَصْلَحَهُ ضِدُّ أفسدَهُ.

ونقرأ في " الكتاب " لسببويه: الصدق صلاح، والسوء فساد.

وفي كتاب العين: عاثَ يَعِثُ عَيْثًا، أَي: أَسْرَعَ فِي الْفُسَادِ.

¹ الأعراف: 142.

² ج: 1، الآية: 205 من سورة البقرة.

ذمّ الفساد والإفساد في رحاب الكتاب العزيز

لقد ذمّ القرآن الكريم الفسادَ والمفسدينَ، حيث جاء ذلك بأساليب متعدّدة، ومن ذلك:

أولاً – ذكر الفساد مقترناً بأضداده، وله صور، منها:

1 – الفساد ضدّ الصلاح.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا
إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا
يَشْعُرُونَ (12) ".¹

وقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ".²

وقال سبحانه: " الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ".³

2 – الفساد ضدّ الإحسان.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ
فِي الْأَرْضِ ".⁴

3 – الفساد ضدّ الإيمان وعمل الصالحات.

قال الله سبحانه وتعالى: " أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ".⁵

ثانياً – قد يذكر الفساد مرادفاً لبعض الكبائر، وله أنواع:

¹ سورة البقرة.

² الأعراف: 56.

³ الشعراء: 152.

⁴ القصص: 77.

⁵ سورة ص: 28.

1 – الفساد يراد به الكفر.

قال الله سبحانه وتعالى: " الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَا لَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ".¹

2 – الفساد يراد به السحر.

قال الله سبحانه وتعالى: " فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ".²

3 – من صور الفساد: الحرب على الله ورسوله وعلى الناس.

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ".³

وقال سبحانه وتعالى: " كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِيَحْرَبِ أَطْفَالَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا".⁴

ثالثاً – عاقبة الفساد والمفسدين:

1 – الله سبحانه وتعالى لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين.

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ".⁵

¹ النحل: 88.

² يونس: 81.

³ المائدة: 33.

⁴ المائدة: 64.

⁵ البقرة: 205.

وقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ " ¹.

وقال سبحانه: " وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " ².

نلاحظ هنا في الآيات الثلاث، اشتراك الفساد فيها: " فِي الْأَرْضِ " . فالله سبحانه لا يحب المفسدين، ولا
يحب عمل المفسدين. حيث أنّ الفساد، أيّ فساد، وهو عمل المفسدين، كأنه فساد في الأرض كلها، برّها وبحرّها.

2 – والله لا يصلح عمل المفسدين

قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ " ³.

ذمّ الفساد والإفساد في رحاب السنة النبويّة

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "... أَلَا وَإِنَّ فِي
الْجَسَدِ مُضَعَّةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ " . متفقٌ عَلَيْهِ. ⁴

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " الْعَزْوَ غَزْوَانٍ: فَأَمَّا مَنْ
ابْتَغَى وَجْهَ اللَّهِ، وَأَطَاعَ الْإِمَامَ، وَأَنْفَقَ الْكَرِيمَةَ، وَيَأْسَرَ الشَّرِيكَ، وَاجْتَنَبَ الْفَسَادَ، فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبُهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ. وَأَمَّا مَنْ
غَزَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً، وَعَصَى الْإِمَامَ، وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ بِالْكَفَافِ " ⁵.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مَنْ دَرَجَةِ
الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ " قَالُوا: بَلَى! قَالَ: " صَلَاحُ ذَاتِ النَّيْنِ. فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ النَّيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ " . قَالَ أَبُو عِيْسَى

¹ الفصص: 77.

² المائدة: 64.

³ يونس: 81.

⁴ البخاري في الإيمان، باب فضل من استبى لدينه. ومسلم في البيوع، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

⁵ رواه مالك في الموطأ، ج: 3، باب الترغيب في الجهاد. وأحمد، واللفظ له، في باب حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.¹ وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " هِيَ الْحَالِفَةُ. لَا أَقُولُ تَخْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ ".

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ مَعَهُ يُوصِيهِ، ثُمَّ انْفَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: " إِنَّ أَهْلَ بَيْتِي هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، إِنَّ أَوْلِيَّائِي مِنْكُمْ الْمُتَّقُونَ، مَنْ كَانُوا أَوْ حَيْثُ كَانُوا، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَحِلُّ لَهُمْ فَسَادَ مَا أَصْلَحْتَ، وَإِنِّمُ اللَّهُ، لَتُكْفَأَ أُمَّتِي عَلَى دِينِهَا كَمَا يُكْفَأُ الْإِنَاءُ فِي الْبَطْحَاءِ ". رواه في المعجم الكبير للطبراني، وفي صحيح ابن حبان. وقال الألباني: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات.²

أَقْوَالٌ فِي نَمِّ الْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ

جاء في تفسير ابن كثير³:

قال السدي في تفسيره: ... عن أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ " أما لا تفسدوا في الأرض، قال: الفساد هو الكفر، والعمل بالمعصية... عن أبي العالية، في قوله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ " قال: يعني: لا تعصوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله؛ لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

وفي النكت والعيون:⁴

¹ وصححه الألباني في: صحيح وضعيف سنن الترمذي، تحت رقم: 2509.

² الطبراني، تحت رقم: 16665. وابن حبان، ج: 3، باب الخوف والتقوى. والألباني في " ظلال الجنة " تحت رقم: 212.

³ ج: 1، تفسير الآية: 11 من سورة البقرة.

⁴ ج: 1، تفسير الآيتين: 11 و 12 من سورة البقرة.

قوله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ "، فيه ثلاثة تأويلات:

— أحدها: أنه الكفر.

— والثاني: فعل ما نهى الله عنه، وتضييع ما أمر بحفظه.

— والثالث: أنه ممالأة الكفار.

وكل هذه الثلاثة، فساد في الأرض، لأن الفساد: العدول عن الاستقامة إلى ضدها.

وفي تفسير القشيري:¹

الموافقة بين المسلمين أصل الدين. وأول الفساد ورأس الزلل الاختلاف. وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة،

تجب الموافقة في الرأي والعزيمة.

والمؤمن ينصر المؤمن ويُبصره عيوبه، ويُبغضُ لديه وَيَقْبَحُ، في عينيه، ذنوبه، وهو على السداد يُنجِده، وعن

الفساد يُبعده. انتهى.

ويقول سيّد قطب:²

قوله تعالى: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا: إِنَّمَا

نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ " .

إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون اليهما السّقه والادّعاء: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ " .. لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التّبجّح والتبرير: "

قَالُوا: إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ " ..

والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جدا في كل زمان. يقولونها لأن الموازين مختلفة

في أيديهم. ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس، اختلت سائر الموازين والقيم. والذين لا يُخلصون

¹ ج: 3، تفسير الآية: 46 من سورة الأنفال.

² في ظلال القرآن، تفسير الآيتين: 11 و 12 من سورة البقرة.

سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم، لأن ميزان الخير والشر والصلاح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية..

ومن ثمَّ يجيء التعقيب الحاسم والتقرير الصادق: " أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَّا يَشْعُرُونَ .."

ويقول سيّد قطب :

وقوله تعالى: " ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل .." ويفسدون في الأرض .."

ورأس الفساد في الأرض هو الحيدة عن منهجه الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويُصِرِّفَهَا. هذا مفرق الطريق الذي ينتهي إلى الفساد حتماً، فما يمكن أن يصلح أمر هذه الأرض، ومنهج الله بعيد عن تصريفها، وشريعة الله مُقْصَاة عن حياتها. وإذا انقطعت العروة بين الناس وربهم، على هذا النحو، فهو الفساد الشامل للنفوس والأحوال، وللحياة والمعاش؛ وللأرض كلها وما عليها من ناس وأشياء. انتهى.

"سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِينَةَ عَرْشِهِ،
وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ".¹

الفصل الخامس – الكِبْر والاستكبار

وفيه: تمهيد، وتعريف الكبر والاستكبار، وذمّ الكبر والاستكبار في القرآن الكريم، وأحاديث شريفة في ذمّ الكبر والاستكبار، وأقوال في ذمّ الكبر والاستكبار.

تمهيد:

¹ رواه مسلم. باب التسييح أول النهار، وعند النوم.

الكِبْرُ شرٌّ وبيل، وداءٌ مستطير، يودي بصاحبه إلى المهالك والردى. وما حُشِيَ القلبُ داءً شرًّا من الكِبْرِ.

ومن الأمثال: طارت عَصَافِيرُ رَأْسِهِ ... كناية عن الكِبْرِ.

ألم يكن الكبر سببا في عصيان إبليس أمرَ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ بالسجود لآدم، فاستكبر فكان من الغاوين، وكانت عليه اللعنة في الدارين؟.

يروى عن أحد الصالحين قوله: قصدتُ جميع الطرق والأبواب فوجدتها مزدحمة وملاى... فطرفتُ باب التذلل والمسكنة، فولجتُ منه على فَوْرِي ومن ساعتِي.

تعريف الكِبْرِ والاستكبار

في المحيط في اللغة:

الكِبْرُ: العِظْمَةُ، والإِثْمُ الكَبِيرُ، وهي الكَبِيرَةُ أيضاً. وقوله عزَّ وجلَّ: "والذي تَوَلَّى كِبْرَهُ" قال: عَظْمُ القَدْفِ، وكِبْرَهُ: يَعْنِي إِثْمَهُ وَخَطَأَهُ.

وفي كتاب العين: الزَّهْوُ: الكِبْرُ والعِظْمَةُ. والمزْهُوُّ: المُعْجَبُ بنفسه.

وفي فقه اللغة: في الكبر وترتيب أوصافه:

رجل معجب، ثم تائه، ثم مزهو، ومنخو، من الزهو والنخوة، ثم باذخ من البذخ، ثم أصيد إذا كان لا يلتفت يمنا ويسرة من كبره، ثم متغترف إذا تشبه بالغطارفة كبراً، ثم متغطرس إذا زاد على ذلك.

وفي الصحاح في اللغة:

الصَعْرُ: الميل في الخدِّ خاصةً. وقد صَعَرَ خَدَّهُ وَصَاعَرَهُ، أي أماله من الكِبْرِ. ومنه قوله تعالى: "ولا تَصَعَّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ".

وفي المحكم والمحيط الأعظم:

والفرعنة: الكبر والتجبر.

ذم الكبر والاستكبار في القرآن الكريم

ما أمرنا الشرع الحنيف بأمر إلا فيه الخير ومصالح العباد والبلاد.

وما نهانا عن شيء إلا فيه الصلاح ودفع المفسدة. ألا إن الكبر والاستكبار مفسدة وأي مفسدة.

وقد نهينا عن الكبر والاستكبار في القرآن الكريم، ولذلك النهي صور، منها:

أولاً – الاستكبار صفة إبليس وأتباعه من الكافرين:

– قال الله العزيز الجبار: " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ"¹.

– وقال الله العزيز الجبار المتكبر: " ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ"².

ثانياً – عاقبة الكبر والاستكبار:

1 – الله سبحانه لا يحب المتكبرين، ولا يحب كل مختال فخور:

– قال الله العزيز الجبار المتكبر: " إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) "³.

– وقال الله العزيز الجبار المتكبر: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا

فَخُورًا "⁴.

¹ البقرة: 34.

² المدثر: 23.

³ سورة النحل.

⁴ النساء: 36.

– وقال الله العزيز الجبار المتكبر: " وَلَا تَصْعَرُ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُذَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ¹."

– وقال الله العزيز الجبار المتكبر: " وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُذَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (24) ²."

وينظر فاحصة في السياق الذي جاءت به الآيات الأربع، نستخلص أسباب حرمان المتكبرين محبة الله سبحانه. فكفرهم، وبعدهم عن شرع الله، وإنكارهم للأخرة، دعاهم ذلك كله للتكبر على الناس، وساقطهم نفوسهم المريضة إلى الفخر والخيلاء، وما ينبغي لهم ذلك، فاستحقوا مقت الله وغضبه، والعقوبة من جنس العمل.

2 – الاستكبار عن طاعة الله وآياته سبب لدخول جهنم:

– قال الله العزيز الجبار المتكبر: " وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ³."

– وقال الله العزيز الجبار المتكبر: " وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⁴."

– وقال الله العزيز الجبار المتكبر: " فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ⁵."

ثالثاً – عباد الرحمن لا يستكبرون عن عبادته:

¹ لقمان: 18.

² سورة الحديد.

³ غافر: 60.

⁴ الأعراف: 36.

⁵ الأحقاف: 20.

— قال الله العزيز الجبار المتكبر: " إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ".¹

— قال الله العزيز الجبار: " وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ".²

— قال العزيز المتكبر: " إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ".³

أحاديث شريفة في ذم الكبر والاستكبار والتحذير منهما

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حَلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مَرَجَلٌ رَأْسَهُ، يَخْتَالُ فِي مَشِيئِهِ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ". متفقٌ عَلَيْهِ.⁴

(مَرَجَلٌ رَأْسُهُ: أَي مَمْشَطُهُ. وَ" يَتَجَلَّجَلُ "، بِالْجِيمِ: أَي يَخُوضُ وَيَنْزِلُ).

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه، قَالَ: سمعت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطِئِ مُسْتَكْبِرٍ ".⁵

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ، وَلِكُلِّيْكُمْ عَلَيَّ مَلُؤُهُا ". رواه مسلم.⁶

¹ الأعراف: 206.

² النحل: 49.

³ السجدة: 15.

⁴ البخاري في اللباس، باب من جرّ ثوبه من الخيلاء. ومسلم في اللباس، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه.

⁵ متفق عليه. أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: " عتل بعد ذلك زنيم ". ومسلم في: صفة الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء.

⁶ كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ ". قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ. الْكِبَرُ: بَطْرُ الْحَقِّ؛ وَغَمَطُ النَّاسِ ". رواه مسلم.¹

أقوال في ذم الكبر والاستكبار

حول تفسير هذه الآية: " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ "،² جاء في:

— تفسير القرطبي: أي لا يثيبهم، ولا يثني عليهم. قال العلماء: وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر، فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. انتهى.

وقد يُخفي المُستكبر تكبره، ويتظاهر بالتواضع، لكن تصرفاته الفعلية وقلبات لسانه تكشف تكبره!.

— فتح القدير: أي: لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه.

— في ظلال القرآن: إن قلوبهم منكرة جاحدة لا تقر بما ترى من الآيات، وهم مستكبرون لا يريدون التسليم بالبراهين والاستسلام لله والرسول. فالعلة أصيلة والداء كامن في الطباع والقلوب!.

والله الذي خلقهم يعلم ذلك منهم. فهو يعلم ما يسرون وما يعلنون. يعلمه دون شك ولا ريب ويكرهه فيهم. " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ". فالقلب المستكبر لا يرجي له أن يفتتح أو يسلم. ومن ثم فهم مكروهون من الله لاستكبارهم الذي يعلمه من يعلم حقيقة أمرهم، ويعلم ما يسرون وما يعلنون.

— في تفسير القشيري: قوله جل ذكره: " لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ". فيفضحهم ويبين نفاقهم، ويُعلن للمؤمنين كفرهم وشقاقهم.

¹ كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

² النحل: 23.

وقوله جلّ ذكره: " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ". دليل الخطاب أنه يحب المتواضعين المتخاشعين، ويكفيهم فضلاً بشاره الحق لهم بمحبته لهم.

وفي إحياء علوم الدين¹:

إذا التكبر — باعتبار المُتَكَبِّرِ عليه — ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان، مثل ما كان من نمرود، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة. بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبره قال: " أنا ربكم الأعلى ".

القسم الثاني: التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره، فيمتنع عن الانقياد وهو ظانّ أنه مُحَقَّقٌ فيه، وتارة يمتنع مع المعرفة، ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل.

القسم الثالث: التكبر على العباد؛ وذلك بأن يستعظم نفسه، ويستحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله.

¹ ج: 3، بيان المتكبر عليه ودرجاته.

الوجه الثاني: الذي تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استكف عن قبوله وتشمّر لجده، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجادون تجاحد المتكبرين. انتهى.

وبمناسبة الحديث عن قوله سبحانه وتعالى: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) ".¹

جاء في تفسير الطبري:

وقوله تعالى: " إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ "، يقول: إذ قال قومه: لا تبغ ولا تبطر فرحاً، إن الله لا يحب من خلقه الأشيرين البطرين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ "، يقول: المرحين.

وعن مجاهد، في قوله تعالى: " لَا تَفْرَحْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ "، قال: المتبذخين، الأشيرين، البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم. وعن مجاهد، قال: هو فرح البغي.

وعن قتاده، " إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: لَا تَفْرَحْ : أي: لا تفرح، " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ " : أي إن الله لا يحب المرحين.

¹ من سورة القصص.

وفي تفسير ابن كثير:

وقوله تعالى: " إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: لَا تَفْرَحْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ "، أي: وَعَظَّهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ صَالِحٌ قَوْمَهُ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ النَّصِيحِ وَالْإِشْرَادِ: لَا تَفْرَحْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ، يَعْنُونَ: لَا تَبْطُرْ بِمَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ، " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ". قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المرحين. وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

وفي النكت والعيون:

قوله تعالى: " لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ "، فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: لا تبغ إن الله لا يحب الباغين، قاله مجاهد.

الثاني: لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين، قاله ابن بحر.

الثالث: لا تبطر إن الله لا يحب البطرين، قاله السدي.

ويقول سيّد قطب¹:

قوله تعالى: " إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: لَا تَفْرَحْ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ. وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ".

¹ في ظلال القرآن.

وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة .

" لَّا تَفْرَحْ " . . فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ . . لا تفرح فرح البطر الذي ينسى المُنْعَمَ بالمال؛ ويُنسى نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران.

لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه؛ ويطير له لبه، ويتناول به على العباد . .

" إِنَّ اللَّهَ لَّا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ " . . فهم يردونه بذلك إلى الله، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتباهين، المتناولين بسلطانه على الناس.

" وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ " . . الفساد بالبغي والظلم. والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة. والفساد بملء صدور الناس بالحرص والحسد والبغضاء. والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال.

" إِنَّ اللَّهَ لَّا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " . . كما أنه لا يحب الفرحين.

الفصل السادس - الخيانة

وفيه: تمهيد، وتعريف الخيانة، وذم الخيانة في القرآن الكريم، وأحاديث نبوية في ذم الخيانة، وأقوال في ذم الخيانة.

تمهيد:

الخيانة صفة ذمها الله سبحانه وتعالى ونهى عنها، وكذلك النبي محمد عليه أطيب الصلاة وأزكى السلام. وهي مذمومة كذلك عند جميع الخلق الصالحين المصلحين. وقد هان من خان.

يقول سيد قطب: ¹ إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة... إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ؛ ومتى استحللت لنفسها وسيلة خسيصة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة... وليس مسلماً من يبرر الوسيلة بالغاية.

تعريف الخيانة

جاء في كتاب العين: الأمانة: نقيضُ الخيانة

وفي أساس البلاغة:

اختان المال، واختان نفسه، وهو خَوَّان، وقوم خَوَّنة. وكفالك من الخيانة أن تكون أميناً للخونة (عوناً لهم، حفيظاً لخيانتهم).

وفي القاموس المحيط:

الخَوْنُ: أن يُؤْتَمَنَ الإنسانُ فلا يَنْصَحَ. وقد خَانَهُ العَهْدَ والأمانةَ. وخَوَّنَهُ تَخَوَّنًا: نَسَبَهُ إلى الخيانة.

ذم الخيانة في القرآن الكريم

مرّ معنا أنّ الخيانة نقيض الأمانة. ولا تستقيم حياة الناس بلا أمن ولا أمانة. وإذا ضيّعت الأمانة حلّت الخيانة، وحلّ معها الهلاك والدمار.

وقد ذمّ القرآن الكريم الخيانة، ونهى عنها، وحذّرنا منها ومن أهلها، وذلك في مواطن عدّة. ومن ذلك:

أولاً — الخيانة والكفر:

¹ في ظلال القرآن، الآية: 58 من سورة الأنفال.

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَأَ يُجِيبُ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ"¹.

2 – وقال سبحانه وتعالى: " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ"².

ثانياً – النهي عن الخيانة:

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"³.

2 – وقال سبحانه وتعالى: " يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ"⁴.

ثالثاً – عاقبة الخيانة

1 – الله سبحانه لا يُحِبُّ الخائنين:

أ – قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ"⁵.

ب – وقال سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَأَ يُجِيبُ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ"⁶.

¹ الحج: 38.

² التحريم: 10.

³ الأنفال: 27.

⁴ غافر: 19.

⁵ الأنفال: 58.

⁶ الحج: 38.

ج - وقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا " ¹.

وسنرى في فقرة: أقوال في ذمّ الخيانة، بعض التفاصيل حول هذه الآيات الثلاث، وغيرها.

رابعاً - إنّ الله لا يهدي كيد الخائنين:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ " ².

أحاديث نبويّة في ذمّ الخيانة

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: " إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ " ³.

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثمّ نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة. ثمّ حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: " يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُنْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ " ... إلى أن قال: " فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤْتِي الْأَمَانَةَ، حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجَلُهُ! مَا أَظْرَفَهُ! مَا أَعْقَلَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ... ". متفق عليه. ⁴

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ادِّ الْأَمَانَةَ إِلَيَّ مَنْ اتَّمَنَكَ. وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ ". أخرجه أبو داود، والترمذي. ⁵

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بئس الضَّجِيعُ. وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بئس البِطَانَةُ ". رواه أبو داود، والنسائي. ⁶

¹ النساء: 107.

² يوسف: 52.

³ رواه البخاري في كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشغول في حديثه...

⁴ البخاري في الرقاق، باب رفع الأمانة. ومسلم في الإيمان، باب رفع الأمانة.

⁵ أبو داود، ج: 9، باب: في الرجل يأخذ حقه من تحت يده. والترمذي، ج: 5، باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الدميّ الخمر يبيغها له.

⁶ أبو داود، ج: 5، باب في الاستعاذة. والنسائي، ج: 16، باب: الاستعاذة من الجوع، وباب الاستعاذة من الخيانة.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يَجْتَمِعُ الْإِيمَانُ وَالْكَفْرُ فِي قَلْبٍ أَمْرٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا، وَلَا تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ جَمِيعًا". رواه أحمد في مسنده.¹

أقوال في ذمّ الخيانة

— جاء في الدر المنثور للسيوطي²: أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: " لا تخونوا الله " قال: بترك فرائضه، " و الرسول " بترك سنته وارتكاب معصيته، " وتخونوا أماناتكم " يقول: لا تتقصوها، والأمانة: التي ائتمن الله عليها العباد.

— وجاء في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني³:... حدثني الأعمش، حدثني سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: " يعلم خائنة الأعين "، قال: إذا أنت نظرت إليها تريد الخيانة أم لا؟ " وما تخفي الصدور ": إذا أنت قدرت عليها تزني بها أم لا؟.

— وجاء في تفسير ابن كثير⁴:

قوله سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ " أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفى بما قال.

والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها. انتهى.

— وجاء في الآداب الشرعية لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي⁵:

¹ مسند أبي هريرة رضي الله عنه، تحت رقم: 8238. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة - مختصرة، تحت رقم: 1050.

² تفسير الآية: 27 من سورة الأنفال.

³ ج: 1، باب: عبد الله بن عباس.

⁴ تفسير الآية: 38 من سورة الحج.

⁵ ج: 1، الباب: فصل في حفظ اللسان، وتوقي الكلام.

قَالَ نَافِعٌ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ: طَافَ ابْنُ عُمَرَ سَبْعًا، وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا أَسْرَعَ مَا طُفْتَ وَصَلَّيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ!... فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ - رضي الله عنه وعن أبيه -: أَنْتُمْ أَكْثَرُ مِنَّا طَوَافًا وَصِيَامًا، وَنَحْنُ خَيْرٌ مِنْكُمْ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَإِنِّجَازِ الْوَعْدِ. انتهى.

— ويقول سيد قطب مُعلقاً حول قول الله سبحانه وتعالى: " وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا " ¹.

إننا نحس في التعبير صرامة، يفوح منها الغضب للحق، والغيرة على العدل؛ وتشيع في جو الآيات وتفيض منها... وهم خانوا غيرهم في الظاهر. ولكنهم في الحقيقة خانوا أنفسهم. فقد خانوا الجماعة ومنهجها، ومبادئها التي تميزها وتفردتها. وخانوا الأمانة الملقاة على الجماعة كلها، وهم منها.. ثم هم يختانون أنفسهم في صورة أخرى. صورة تعريض أنفسهم للإثم الذي يجازون عليه شر الجزاء. حيث يكرههم الله، ويعاقبهم بما أثموا. وهي خيانة للنفس من غير شك.. وصورة ثالثة لخيانتهم لأنفسهم، هي تلوين هذه الأنفس وتدنيها بالمؤامرة والكذب والخيانة.

" إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا "...

وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة... وهي تلقي إلى جانبها إحياء آخر. فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد، ولا أن يحمي عنهم أحد. وقد كرههم الله للإثم والخيانة!.

— ويقول سيد تعلقاً على قوله سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " ²:

إن التخلي عن تكاليف الأمة المسلمة في الأرض خيانة لله والرسول ... كذلك يحذرنا خيانة الأمانة التي حملتها يوم بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام. فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، وليس مجرد عبارات وأدعية. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا

¹ في ظلال القرآن، الآية: 107 من سورة النساء.

² في ظلال القرآن، الآية: 27 من سورة الأنفال.

إله إلا الله؛ وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق؛ ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته، ورد الطغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء؛ وتأمين الحق والعدل للناس جميعاً؛ وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت؛ وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله... وكلها أمانات من لم ينهض بها فقد خانها؛ وخاس بعهده الذي عاهد الله عليه، ونقض بيعته التي بايع بها رسوله.

— ويقول سيّد قطب عند تعليقه على قول الله سبحانه وتعالى: " وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ " ¹:

إن الإسلام يعاهد ليصون عهده؛ فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلاوية؛ ولم يخن ولم يغدر؛ ولم يعش ولم يخدع؛ وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان... وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة... إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر، وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ؛ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم، حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم... فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة... إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع؛ ويريد للبشرية أن تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلب؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة. انتهى.

— وفي أدب الدنيا والدين ²:

قِيلَ فِي مَثْوَرِ الْحَكَمِ : مَنْ يَخُنْ يَهُنْ .

وَقَالَ خَالِدُ الرَّبِيعِيُّ: قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ السَّالِفَةِ: أَنَّ مِمَّا تَعْجَلُ عَقُوبَتَهُ وَلَا تُؤَخَّرُ: الْأَمَانَةُ تَخَانُ، وَالْإِحْسَانُ يُكْفَرُ، وَالرَّحْمُ تُقَطَّعُ، وَالْبَغْيُ عَلَى النَّاسِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ دَمِ الْخِيَانَةِ إِلَّا مَا يَجِدُهُ الْخَائِنُ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْمَذَلَّةِ لَكَفَاهُ زَاجِرًا.

¹ في ظلال القرآن، تفسير الآية: 58 من سورة النفال.

² ج: 1، باب: الفصل السابع في المروءة.

— وفي أدب الدنيا والدين أيضاً: وإِظْهَارُ الرَّجُلِ سِرِّ غَيْرِهِ أَفْبَحُّ مِنْ إِظْهَارِهِ سِرِّ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ يَبُوءُ بِإِحْدَى وَصْمَتَيْنِ: الْخِيَانَةَ إِنْ كَانَ مُؤْتَمَنًا، أَوْ النَّيْمَةَ إِنْ كَانَ مُسْتَوْدَعًا. انتهى.

— وفي إحياء علوم الدين¹:

يروى أن معاوية رضي الله عنه، أسرَّ إلى الوليد بن عتبة حديثاً، فقال — الوليد — لأبيه: يا أبت، إن أمير المؤمنين أسر إلي حديثاً، وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلي غيرك!. قال (عتبة): فلا تحدثني به، فإن من كتم سرِّه كان الخيار إليه، ومن أفشاه كان الخيار عليه. قال: فقلت: يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه؟! فقال: لا والله يا بني، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر.

قال: فأتيت معاوية؛ فأخبرته. فقال: يا وليد؛ أعتقك أبوك من رِقِّ الخطأ. فإفشاء السر خيانة. انتهى.

وقال الحسن البصري: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

وعن الحسن البصري أنه أقبل حتى قعد في مجلسه، فعظَّم الأمانة، وقال: إنما تجالسون بالأمانة، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم! إن الخيانة أشدَّ الخيانة: أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار!. (يعني الوشاية، وإخبار الولاة والمسؤولين...). انتهى.

— وفي الأخلاق والسير لابن حزم²:

الاستهانة نوع من أنواع الخيانة، إذ قد يخونك من لا يستهين بك، ومن استهان بك، فقد خانك الإنصاف. فكل مستهين خائن، وليس كل خائن مستهيناً. الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع... والخيانة في الحُرْم

¹ ج: 2، باب: الوعد الكاذب.

² ج: 1، أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها.

أشد من الخيانة في الدماء... فالعرض أعز على الكريم من المال... ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله، ويصون نفسه بجسمه، ويصون عرضه بنفسه، ويصون دينه بعرضه، ولا يصون دينه شيئاً أصلاً. انتهى.

اللهم إنا نعوذ بك من الخيانة، فإنها بُسَّتِ البِطَانَةُ. واجعلنا ممن يؤدّون الأمانات إلى أهلها.

الفصل السابع - الإسراف والتبذير

وفيه: تمهيد، وتعريف الإسراف والتبذير، وذم الإسراف والتبذير في القرآن الكريم، وأحاديث في ذم الإسراف والتبذير، وأقوال في ذم الإسراف والتبذير.

تمهيد:

يقول الله مولانا العزيز الحكيم: " وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ¹."

في تفسير ابن كثير: والسفيه: هو الجاهل، الضعيف الرأى، القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار. انتهى.

وإنما نهى الله سبحانه عن إعطائهم الأموال لأنهم لا يحسنون التصرف، ولا يعرفون أين تكون المصلحة...

ويقول الله العزيز الحكيم: " فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ²." فمن لا يقدر الأمور بمقدارها الصحيح، يسرف، ويبذر، ويفسد، من حيث يدري أو لا يدري، وهو يظن أنه من المصلحين.

تعريف الإسراف والتبذير

¹ النساء: 5.

² النساء: 6.

جاء في المحيط في اللغة: والتبذيرُ والتبذرةُ: إفسادُ المالِ وإنفاقه في السرفِ.

وفي لسان العرب: بَذَرَ ماله: أَفْسده، وَأَنْفَقه في السرفِ، وكُلُّ ما فرقتَه وَأفْسدته فقد بَذَرْتَهُ.

وتبذيرُ المالِ تفريقه إسرافاً. والتبذيرُ إفسادُ المالِ وإنفاقه في السرفِ. قال الله عز وجل: " ولا تُبذِرْ تَبذيراً ". وقيل: التبذير: أن ينفق المال في المعاصي، وقيل: هو أن يبسط يده في إنفاقه، حتى لا يبقى منه ما يقتاته، واعتباره بقوله تعالى: " ولا تبسطها كلَّ البسط فتتعد مَلوماً محسوراً ".

ذم الإسراف والتبذير في القرآن الكريم

المُسرفون هم الطواغيت وحواشيهم، والمبذرون هم إخوان الشياطين. والله سبحانه وتعالى لا يحب الإسراف ولا يحب المسرفين، ولا يحب التبذير ولا يحب المبذرين. وقد نهانا مولانا عن الإسراف والتبذير في كتابه العزيز، والآيات الآتية تبين لنا بعض ذلك:

أولاً – النهي عن الإسراف والتبذير:

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ".¹

2 – وقال الله سبحانه: " يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ".²

¹ الأنعام: 141.

² الأعراف: 31.

3 – وقال سبحانه وتعالى: " وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) ".¹

4 – وقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) ".²

ثانياً – الإسراف ليس من أخلاق عباد الرحمن:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ".³

ثالثاً – الله يُضِلُّ المسرفَ ولا يهديه:

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ".⁴

2 – قال الله سبحانه وتعالى: " كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ".⁵

رابعاً – عاقبة المسرفين والمبذرين:

آ – المسرفون هم أصحاب النار:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ
النَّارِ ".⁶

ب – الله سبحانه وتعالى لا يُحب المسرفين، ولا يُحب المبذرين:

¹ من سورة الإسراء.

² من سورة الشعراء.

³ الفرقان: 67.

⁴ غافر: 28.

⁵ غافر: 34.

⁶ غافر: 43.

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ".¹

2 – وقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ".²

3 – وقال سبحانه: " وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27) ".³

ومن كان من إخوان الشياطين، ومن كان من غير المحبوبين، كان، ولا بدّ، من المغضوب عليهم، المطرودين من رحمة الله، وأيّ عقوبة أشدّ من عقوبة الحرمان من محبة الرحمان؟!.

خامساً – المسرفون المفسدون مع الطواغيت وأتباعهم:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ".⁴

سادساً – الإسراف يراد به الخطيئة والذنوب:

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ".⁵

2 – قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامنا وَانصُرنا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) ".⁶

أحاديث شريفة في ذمّ الإسراف والتبذير

¹ الأنعام: 141.

² الأعراف: 31.

³ من سورة الإسراء.

⁴ يونس: 83.

⁵ الزمر: 53.

⁶ آل عمران.

في صحيح البخاري:

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ "

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَالْبُسُوءَ، وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ". وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُلُّ مَا شِئْتَ وَالْبَسُ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرْفٌ، أَوْ مَخِيلَةٌ.

وفي صحيح مسلم¹:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا، وَلَا تَفْرُقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ".

وعن أَبِي بَرزَةَ، نَضَلَةَ بْنِ عبيدِ الأَسْمِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَتْلَاهُ؟". رواه الترمذي² وقال: حديث حسن صحيح.

أَقْوَالٌ فِي نَمِّ الإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ

— في تفسير ابن كثير: الظاهر — والله أعلم — من سياق الآية حيث قال تعالى: "كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" أن يكون عائداً على الأكل، أي: ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كما قال تعالى: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ".

وفيه: ثم قال مُنفِراً عن التبذير والسرف: "إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ" أي: أشباههم في ذلك.

¹ في الأفضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

² في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص. وصححه الألباني في: صحيح وضعيف سنن الترمذي، تحت رقم 2417.

وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذراً.

ولو أنفق مُدًّا في غير حقه كان تبذيراً.

وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق وفي الفساد.

قال بعض السلف: جَمَعَ اللهُ الطَّبَّ كُلَّهُ فِي شَطْرِ آيَةٍ: " وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا".

— وفي النكت والعيون: " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"، فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: لا تسرفوا في التحريم، قاله السدي.

والثاني: معناه لا تأكلوا حراماً فإنه إسراف، قاله ابن زيد.

والثالث: لا تسرفوا في أكل ما زاد على الشبع، فإنه مُضِرٌّ.

ويحتمل تأويلاً رابعاً: لا تسرفوا في الإنفاق.

وقوله: " إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" يحتمل وجهين:

أحدهما: لا يحب أفعالهم في السرف.

والثاني: لا يحبهم في أنفسهم لأجل السرف.

— وفي تفسير القرطبي: قوله تعالى: " وَلَا تَبذُرْ" أي لا تسرف في الإنفاق في غير حق.

قال الشافعي رضى الله عنه: والتبذير إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور.

وقال أشهب عن مالك: التبذير هو أخذ المال من حقه، ووضع في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام، لقوله

تعالى: " إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ"، " إِخْوَانٌ" يعني أنهم في

حكمهم، إذ المبذر ساع في إفساد كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تُسَوَّل لهم أنفسهم، أو أنهم يقرنون بهم غدا في النار. ثلاثة أقوال.

في إحياء علوم الدين: وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد، والمحمود هو الاقتصاد.

في مصنف ابن أبي شيبة: ... عن سعيد بن جبير قال: سأله رجل عن إضاعة المال، قال: أن يرزقك الله رزقا فتتفقه فيما حرم عليك. انتهى.

ومن الجدير بالذكر: كما هو منهى عن الإسراف والتبذير، فإنه منهى عن البخل كذلك... ومن أعجب ما قيل عن البخيل: إنَّ البخيل يعيش في الدنيا عيشة الفقراء، ويُحاسب يوم القيامة حساب الأغنياء.

— ويقول سيّد قطب، عند قوله تعالى: " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ "...

ينصرف إلى العطاء، كما ينصرف إلى الأكل. فقد روي أنهم تباروا في العطاء حتى أسرفوا، فقال الله سبحانه: " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ "...

ويقول: فليست هي الكثرة والقلّة في الإنفاق. إنما هو موضع الإنفاق. ومن ثم كان المبذرون إخوان الشياطين، لأنهم ينفقون في الباطل، وينفقون في الشر، وينفقون في المعصية. فهم رفقاء الشياطين وصحابهم " وكان الشيطان لربه كفورا " لا يؤدي حق النعمة، كذلك إخوانه المبذرون لا يؤديون حق النعمة، وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق، غير متجاوزين ولا مبذرين. انتهى.

نعوذ بك يا مولانا ويا ربنا، من الإسراف ومن التبذير، في قولنا أو فعلنا. وكن لنا يا الله حافظاً ومؤيداً،

وناصراً ومُسَدِّداً.

الفصل الثامن - الفسق

وفيه: تمهيد، وتعريف الفسق، وآيات بيّنت في ذمّ الفسق والنهي عنه، وأحاديث نبويّة في ذمّ الفسق والنهي عنه، وأقوال في الفسق وذمّه.

تمهيد:

بئس الفسقُ صفةٌ تُلصقُ بإنسانٍ يستحقّها، أو يتسرّبُ بسريالها.

فالفسق مذموم، وصاحبه بعيد عن الله، والله لا يهدي القوم الفاسقين، ولا يرضى حالهم، ولا يُحبّ أحوالهم. والفاسقون في المجتمع المسلم، هم من أسباب أمراض ذلك المجتمع، وهم من أسباب المصائب التي تحلّ بذلك المجتمع، وهم من أسباب منع الخيرات وتنزل البركات، وهم من أسباب حجب الفرج وتأخر النصر... عياذا بالله من الفسق ومن أحوال الفاسقين.

تعريف الفسق

جاء في مختار الصحاح:

ف س ق: فسقت الرطوبة خرّجت عن قشرها. وفسق عن أمر ربّه أي خرّج.

وفي المحكم والمحيط الأعظم:

ف س ق: الفسق: العصيان والترك لأمر الله، والخروج عن طريق الحق.

وقيل: الفسوق: الخروج عن الدين. وقوله تعالى: " بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ "، أي: لا تُعَيِّرُوهُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ أَنْ آمَنُوا. ويحتمل أن يكون كل لقب كرهه الإنسان، وإنما يجب أن يُخاطَبَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ، هذا قول الزجاج.

وفي تاج العروس:

الْفِسْقُ بِالْكَسْرِ: التَّرْكَ لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْعَصْيَانُ وَالْخُرُوجُ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، قَالَه اللَّيْثُ.

أو هو الفجور كالفسوق بالضّمّ. وقيل: هو الميلُ إلى المعصية.

قال الأصبهاني: الفسقُ أعمُّ من الكُفْرِ. والفسقُ يقعُ بالقليلِ من الذُّنُوبِ، وبالكثيرِ. ولكن تُعورِفَ فيما كانَ بكثيره. وأكثرُ ما يُقالُ الفاسقُ لمن التزمَ حكمَ الشرعِ وأقرَّ به ثم أخلَّ بجميعِ أحكامه أو ببعضها. وإذا قيل للكافرِ الأصلِ فاسق، فلأنه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقلُ واقتضته الفطرةُ. ومنه قوله تعالى: " أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟ لَا يَسْتَوُونَ " فقابلَ به الإيمان. فالفاسقُ أعمُّ من الكافرِ، والظالمُ أعمُّ من الفاسقِ.

آيات بيّنات في ذكر الفسق وذمه والنهي عنه

ذكر القرآن الكريم الفسق والفاستين، على سبيل التحذير منهم ومن أعمالهم، ومن مصيرهم وأحوالهم. وتنوّعت مجالات النهي عن الفسق والفسوق، وتعدّدت أساليب القرآن في ذمّ الفسق والفاستين. وفيما يأتي بعض ذلك:

أولاً – بعض صفات الفاستين:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ

بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ. أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)
"1.

ثانياً – إبليس والفسق:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ "2.

ثالثاً – الفسق والإيمان:

قال الله سبحانه وتعالى: " أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا؟! لَّا
يَسْتَوُونَ "3.

رابعاً – الفسوق والظلم سبب لدمار الديار، وهلاك البلاد والعباد:

1 – قال الله سبحانه وتعالى: " فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ "4.

2 – وقال سبحانه وتعالى: " إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ "5.

وإذا أضفنا قول الله سبحانه وتعالى: " فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ
الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَظْلِمُونَ "6، إلى الآيتين السابقتين، فإننا نلاحظ العبارة القرآنية: " رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ " في الآيات
الثلاث، واشتراك ذلك بين الظالمين والفاستقين.

¹ من سورة البقرة.

² الكهف: 50.

³ السجدة: 18.

⁴ البقرة: 59.

⁵ العنكبوت: 34.

⁶ الأعراف: 162.

3 - وقال سبحانه وتعالى: " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ".¹

خامساً - الفسق والنفاق:

1 - قال الله سبحانه وتعالى: " نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) ".²

2 - وقال سبحانه وتعالى: " اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ".³

3 - وقال سبحانه وتعالى: " وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ".⁴

نلاحظ أن الآيات الثلاث جاءت في سورة واحدة، هي سورة براءة: سورة التوبة. وأنهم استحقوا ذلك الجزاء لأنهم نسوا الله، ولأنهم كفروا بالله سبحانه، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وماتوا وهم فاسقون.

سادساً - الكفر والفسوق والعصيان:

قال الله سبحانه وتعالى: " وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ".⁵

قال الله سبحانه وتعالى: " وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ".⁶

¹ الإسراء: 16.

² من سورة التوبة.

³ التوبة: 80.

⁴ التوبة: 84.

⁵ النور: 55.

⁶ الحجرات: 7.

سابعاً — عاقبة الفسق والفسوق والفاستين:

1 — الله لا يهدي القوم الفاسقين

جاءت العبارة القرآنية: " اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " ¹ في خمسة مواضع، تحدثت في موضعين منها عن المنافقين، وأن الله لن يغفر لهم، فيما تحدثت في مكان آخر عن التحذير من النفور عن الجهاد في سبيل الله.

2 — الله لا يرضى عنهم:

قال الله سبحانه وتعالى: " يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ " ².

ومن لا يرضى الله عنه، فإنه يبغضه ولا يحبّه. ومن أبغضه الله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، وخسرَ خسراناً ميبيناً.

3 — لهم عذاب الهون في الآخرة:

قال الله سبحانه وتعالى: " فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابِ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ " ³. وقد ذكر الله عذاب الهون ووعد المستكبرين، في ثلاثة مواضع: مرّة لثمود قوم صالح لما أهلكهم بالصّاعقة في الدنيا، ومرتين للمنافقين في الآخرة.

نصوص نبويّة في ذمّ الفسق والنهي عنه

¹ المائدة: 108، والتوبة: 24 و 80، والصف: 5، والمنافقون: 6.

² التوبة: 96.

³ الأحقاف: 20.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " سِيَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَتَاتَلُهُ كُفْرٌ ". متفق عليه¹.

جاء في شرح النووي على مسلم²:

وَاعْلَمْ أَنَّ سِيَابَ الْمُسْلِمِ بغيرِ حَقِّ حَرَامٍ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " سِيَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ "، وَلَا يَجُوزُ لِلْمَسْبُوبِ أَنْ يَنْتَصِرَ إِلَّا بِمِثْلِ مَا سَبَّهُ، مَا لَمْ يَكُنْ كَذِبًا أَوْ قَذْفًا أَوْ سَبًّا لِأَسْلَافِهِ.

وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله³:

عَنْ مِجْنَبِ بْنِ الْأَدْرَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: " يَوْمُ الْخَلَّاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَّاصِ؟ يَوْمُ الْخَلَّاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَّاصِ؟ يَوْمُ الْخَلَّاصِ وَمَا يَوْمُ الْخَلَّاصِ؟ " — ثَلَاثًا — فَقِيلَ لَهُ: وَمَا يَوْمُ الْخَلَّاصِ؟! قَالَ: " يَجِيءُ الدَّجَالُ فَيَصْعَدُ أُحْدَا، فَيَنْظُرُ الْمَدِينَةَ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: أَتَرَوْنَ هَذَا الْقَصْرَ الْأَبْيَضَ؟ هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ. ثُمَّ يَأْتِي الْمَدِينَةَ، فَيَجِدُ بِكُلِّ نَقَبٍ مِنْهَا مَلَكًا مُصَلِّيًا، فَيَأْتِي سَبْخَةَ الْحَرْفِ، فَيَضْرِبُ رُوَاقَهُ. ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ، وَلَا فَاسِقٌ وَلَا فَاسِقَةٌ، إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ يَوْمُ الْخَلَّاصِ ".⁴

قال الحاكم في المستدرک على الصحيحين⁴: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وعن أبي ذر رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفِسْقِ أَوْ الْكُفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَهُ كَذَلِكَ ". رواه البخاري⁵.

أقوال في ذمّ الفسق والفسوق والفاستقين

¹ البخاري في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن. ومسلم في الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق.

² ج: 8، باب: النهي عن السباب.

³ الحديث رقم: 18207، باب: حديث مجنب بن الأدرع رضي الله عنه.

⁴ الحديث تحت رقم: 8780.

⁵ في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن.

— قال كعب بن مالك رضي الله عنه:

والله ما أنعم الله عليّ من نعمة قطُّ بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن لا أكون كذبتُهُ فأهلك كما هلك الذين كذبوا. إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرًّا ما قال لأحد، قال الله: " سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96) ". رواه البخاري، ومسلم واللفظ له¹، وأحمد، وغيرهم.

وفي تفسير ابن كثير²:

عن أبي العالية، في قوله تعالى: " وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27) "، قال:

هي ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال:

إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخفوا، وإذا أوتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض.

وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث:

إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخفوا، وإذا أوتمنوا خانوا.

¹ جزء من حديث رواه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة تبوك. ومسلم في كتاب التوبة، باب توبة كعب بن مالك.
² تفسير الأيتين: 26 و 27 من سورة البقرة.

— ويقول سيّد قطب، تعليقا على قوله تعالى: " وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ "¹:

الذين فسقت قلوبهم من قبل، وخرجت عن الهدى والحق، فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه!

ويُفَصِّلُ السياق صفة الفاسقين هؤلاء، كما فصل في أول السورة صفة المتقين؛ فالمجال ما يزال، في السورة، هو مجال الحديث عن تلك الطوائف، التي تتمثل فيها البشرية في شتى العصور: " الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .."

فأي عهد من عهود الله هو الذي ينقضون؟ وأي أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذي يقطعون؟ وأي لون من الفساد في الأرض هو الذي يفسدون؟

لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال لأن المجال مجال تشخيص طبيعة، وتصوير نماذج، لا مجال تسجيل حادثة، أو تفصيل واقعة.. إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها. فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض؛ وكل ما أمر الله به أن يوصل فهو بينهم مقطوع؛ وكل فساد في الأرض فهو منهم مصنوع.. إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة، وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ولا تستمسك بعروة ولا تتورع عن فساد. إنهم كالثمرة الفجة التي انفصلت من شجرة الحياة، فتعفت وفسدت ونبذتها الحياة..

... إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن، والكفر بين.. الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله — بذلك المدلول — فمن لم يشهدا على هذا النحو؛ ومن لم يقيّمها في الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين.. المجرمين..

— وفي تفسير الطبري¹:

¹ في ظلال القرآن، الآيات: 26 و 27 من سورة البقرة.

" وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " يقول: والله لا يوفق لإصابة الحق، القوم الذين اختاروا الكفر على الإيمان.

" إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " يقول: إن الله لا يوفق للإيمان القوم الكاذبين عليه، الكافرين به، الخارجين عن طاعته.

— وفي تفسير القرطبي:

قوله جل ذكره: " وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَأْتُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " ².

لَمَّا زَاغُوا بَتَرَكَ الْحَدِّ، أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِنَقْضِ الْعَهْدِ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ، أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِالصَّدِّ وَالرَّدِّ وَالْبُعْدِ عَنِ الْوَدِّ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا بظواهرهم، أَزَاغَ اللَّهُ سرائِرَهُمْ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنْ خِدْمَةِ الْبَابِ، أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّشَوُّقِ إِلَى الْبَسَاطِ.

ويقال: لَمَّا زَاغُوا عَنِ الْعِبَادَةِ، أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِرَادَةِ.

" رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " ³.

" رَبَّنَا لَا تَزِرْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ " ⁴.

¹ تفسير الآية: 5، من سورة الصف.

² سورة الصف: 5.

³ البقرة: 201.

⁴ آل عمران: 8.

خلاصة الباب الثاني

قال الله سبحانه وتعالى: " وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .
وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا " .¹

إذاً، وضح الطريق، واستبان سبيل الرشد، وعرفنا صفات الذين لا يُحبهم الله، وخبرنا أصنافهم.

ونحن نريد أن نكون من الأصناف الذين ذكرناهم في فصول الباب الأول، ونريد كذلك أن نجتنب الأصناف المذكورين هنا في فصول الباب الثاني، وأن لا نسلك سبيل الغي. وقد ذكرنا فيه: الخائنين، والظالمين، والفاستقين، والكافرين، والمستكبرين، والمسرفين، والمعتدين، والمفسدين.

وقد جمعت هذه الأصناف الفواحش وأبواب الشر والآثام كلها، وأنواع المفاصد والأخطار والأضرار جميعها.

فالحذر الحذر من المعاصي فإنها بريد الكفر، وهي السبيل الموصل لغضب الله سبحانه وتعالى.

والحذر الحذر من المعاصي فإنها تجعل في القلوب ظلمة، وتضع عليها غشاوة، بل وتميت المعاصي القلوب.

¹ الأعراف: 146.

والحذر الحذر، كلَّ الحذر، من اللسان وآفاته، ومن القلب وتقلباته، ومن النفس وأهوائها، ومن الجوارح وأفعالها، ولنوطن أنفسنا، ولنروّض جوارحنا، أن نكون دائماً على سبيل الهدى والرشاد. وأن نكون من المُسارعين إلى الخيرات، وفعل الطاعات، ومن المخبّتين الخاشعين إلى باري الأرض والسموات.

خاتمة البحث

تَطَرَّقْتُ في الباب الأول من هذا الكتاب إلى ثمانٍ من الصفات المحبوبة المرغوبة، والتي يُحِبُّها الله سبحانه وتعالى، ورسوله محمدٌ صلى الله عليه وسلّم. وذكرَ اللهُ سبحانه في كتابه العزيز أنه يُحِبُّ أصحابها والمُتَخَلِّقين بها، وأثنى النبيُّ صلى الله عليه وسلّم على أصحابها والعاملين بمقتضاها. تلكم الصفات التي **أمرنا ديننا الحنيف إلى التخلّق بها، والأخذ بأحسنها.**

وتطرقتُ في الباب الثاني إلى سبعٍ من الصفات المذمومة المنبوذة، التي لا يُحِبُّها الله سبحانه وتعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلّم. وأخبرنا اللهُ سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أنه لا يُحِبُّ أصحابها ولا المُتَخَلِّقين بها. ودعانا الشرع الحكيم في القرآن العظيم وعلى لسان النبيِّ الكريم صلى الله عليه وسلّم، **إلى اجتنابها، والابتعاد عنها.** وقد وردت تلكم الصفات واشتقاقاتها وصفات أصحابها في مواطن كثيرة جدًا في آيات الذكر الحكيم. ولكنها ما اقترنت بـ: "يحبُّ"، أو بـ: "لا يحبُّ"، إلا في المواطن التي ذكرناها!!؟.

ومقتضى ذلك أن ننظر بنفكر واعتبار، إلى سياق الآيات التي ذُكرت من خلالها تلكم الصفات، لنأخذ بأحسنها، ونجتنب ما نهينا عنه.

ولكي يحصل ذلك، فلا بُدَّ من قلبٍ فهِيمٍ، وإيمانٍ سليمٍ، ودينٍ قويمٍ، على صراطٍ مستقيمٍ.

ومثّلتُ لذلك بمثل جهاز المذياع أو التلفاز، فلو أراد أحدنا أن يستمع، أو يشاهد محطةً ما، فلا بُدَّ بعد وجود المحطة الرئيسة للبثّ، أن يتوافر لديه جهاز صالح للاستقبال، ومصدر للطاقة التي تُشغّل الجهاز، وتوجيه اللاقط بالاتجاه المناسب، ثم تعبير الجهاز على التردد المناسب لالتقاط المحطة المطلوبة بشكل واضح.

وبعد:

لقد كَرَّمَنَا اللهُ سبحانه وتعالى نحن بني آدم، وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا. قال سبحانه وتعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا".¹

وامتنَّ اللهُ سبحانه وتعالى علينا نحن المؤمنين، ونبِيِّهِ ورسوله محمد صلى اللهُ عليه وسلّم. قال سبحانه وتعالى: " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ".²

وهدانا سبحانه وتعالى لسبيل الرشاد وللطريق السداد، وأنقذنا من الضلال المبين، وزين الاعتقاد.

وأكمل لنا الدين، وأتمَّ علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام ديناً. قال سبحانه وتعالى: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا".³

¹ الإسراء: 70.

² آل عمران: 164.

³ المائدة: 3.

وقال سبحانه وتعالى: " وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ " ¹.

فلقد خَلَقْنَا اللهُ سبحانه وتعالى، وكرّمنا، وشرفنا بهذا الدين، وجعلنا من عباده المؤمنين. ولولا ذلك:

فماذا يُساوي هذا الإنسان، كجرّم، بلا روح ولا إيمان بالله الواحد القهار؟!

بل ماذا تُساوي هذه الأرض كلّها بالنسبة لمجرتنا التي في فلکها نسیح؟!

وماذّا تُساوي السماوات بما احتوته من مجرّات بالنسبة لمُلك الله سبحانه وتعالى؟!

وماذّا تُساوي بالنسبة لعظمته تبارك وتعالى. قال سبحانه وتعالى: " وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ " ². وقال سبحانه وتعالى: " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " ³.

فعلينا أن نُعظّم الله العظيم في قلوبنا، وعلينا أن نُقرّه تبارك وتعالى بما هو أهل له، بكلّ صفات الكمال والجلال والجمال، وأن نُنزّهه عن كلّ نقص على كلّ حال.

ومن ذلك: أن نعبد الله مخلصين له الدين، وأن لا نُشرك به شيئاً، وأن نجعل حبه يملأ قلوبنا، ويُسيّر جوارحنا، ويُرشد عواطفنا، ويضبط حياتنا، فهو سبحانه وتعالى أهلّ لكلّ خير، وأهلّ لأن يُمجّد وأن يُحمد، وأهلّ لأن يُفرد بالحبّ، وأهلّ وحده لأن يُعبد.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْنُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ. وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللهِ وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي ". قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. ⁴

¹ آل عمران: 85.

² البقرة: 255.

³ الزمر: 67.

⁴ ضعفه الألباني في: صحيح وضعيف سنن الترمذي، تحت رقم: 3789.

وأخيراً أقول:

في الحديث الذي يرويه أمير المؤمنين أبو حفص عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، عندما جاء جبريل عليه السلام يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام، فعدد الرسول صلى الله عليه وسلم خمساً بُنيَ عليها الإسلام. وعندما سئل عن الإيمان ذكر ستّاً هي أساس الإيمان وأركانه.

وقال صلى الله عليه وسلم: " الحَجَّ عِرفَة " أي: أعظم أركانه وأعماله...

أقول:

لقد ذكرتُ في الباب الأوّل عدداً من الخصائص التي يُحبّها الله سبحانه تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. وذكرتُ في الباب الثاني بعضاً من الخصائص التي هي على النقيض من سابقتها...

أقول هذا بين يدي سؤال يطرح نفسه: فأين الكلام عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأين الصدق والصدقات، وأين غضّ البصر وصلة الأرحام، وأين برّ الوالدين؟... وأين؟! وأين!؟...

فعلّ في هذا جواباً على مثل هذا السؤال. فإنما هي صُوَى ومَنارات على الطريق، يهتدي بها السائرون... ركضا إلى الله بغير زاد... غير التقي وطلب المعاد.

والجامع لذلك كلّهُ، قوله صلى الله عليه وسلم، وهو يُبيّن الإحسان: " الإِحسانُ: أنْ تعبدَ الله كأنَّكَ تراه. فإنْ لم تكن تراه فإنّه يراك ".

فَلنُعظّم الله سبحانه في قلوبنا... فهو مُطَّلَع علينا، ناظراً إلينا، يعلم السرّ والخفّيات...

ولنُسْتَح من الله مولانا العظيم، ولا نجعله أهون الناظرين إلينا.

سبحانك اللهم وبحمدك، عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك. ولك الحمد، سبحانك لا نُحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

اللهم اجعلنا من خاصّة أوليائك، ومن صفوة أحبائك، ولك الحمد في الأولى، ولك الحمد في الآخرة.

وأختم بهذا الدعاء، دعاء الجوامع الكوامل¹:

" اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ.

وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ.

وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَأَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَسْتَعِيدُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا ".

وصل اللهم على عبدك وحبيبك ونيبك ورسولك وصفيك من خلقك سيدنا محمد، وآل بيته الأخيار الأطهار،

وصحابته الكرام الأبرار، ومن تبعهم بإحسان، ما تعاقب الليل والنهار... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رجب الخير 1429 هجرية . الموافق : تموز 2008 ميلادية .

رقم الهاتف : 0777716988 _____ 0785186382 / أبو محمد

1 هذا الدعاء علمه النبي صلى الله عليه وسلم، للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. رواه الإمام أحمد، في: مسند السيدة عائشة، تحت رقم 2398.